بسم الله الرحمن الرحيم



٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

مقدمة

الحمد لله حمداً ليس لإحصائه تعداد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعباد؛ العاكف منهم والباد، خيرِ من نطق بالضاد، وأفضل من دلَّ على سبيل الرشاد، وعلى آله وصحبه الذين آثروا طريق السلامة والسداد، وبعد،

فكثيرةٌ هي الخصائص التي ٱنفرد بها وٱنماز عمَّا سواه هذا الكتابُ الكريم، الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماءُ، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه! وقد تعددت الأطيافُ التي شعَّ بها ما بين دفتيه مُنتشرةً في الآفاق، ومبثوثةً في الأرجاء، ومالئةً جو الأرض والسماء، ومكتنفةً لكل ما يتعلق بالأحياء والأشياء بالبيان والتفصيل والاستقصاء.

ونظراً لما تُمثِّله تلك الأطياف البرَّاقة من أهمية بالغة في بلوغ الفهم والمرمى، والوقوف على القصد والدلالة؛ فقد ٱنبرى لها علماء الأمة بحثاً لقواعدها، ودراسة لعلومها، وتبويباً لشواردها، وٱستقصاء لشواهدها، وتنقيباً عن آثارها، بعد إقبالهم على منجمها حفظاً وفهماً وتدبُّراً، ودراسة وبحثاً وتفسيراً، وعملاً وسُلُوكاً وٱتباعاً؛ فاستخرجوا من مكنوناته ما أمكنهم من نفائس الدُّرر، وجواهر الدروس والعبر! ورأيتُني إزاء تلك الجهود الطيبة المبذولة متحفزاً لأنْ أدلو دلوي فأستخرج أو أُبرز ما تسنَّى لي من موشور تلك الأطياف!

وقد آثرتُ في هذه الدراسة الاصطلاحَ على الطريقة التي عرض بها القرآنُ المجيدُ مسائلَه وعلومَه وسائرَ معانيه بـ(الحركة الانتشارية)؛ لأشيَ عبرها بما لأُسلوب القرآن المُعجز من تفرُّدٍ وسُمُوٍّ في صبِّ مدلولاته التي أُريدَ لها الإحاطةُ والشمولُ والتفصيلُ والتبيانُ لكلِّ شيء ضمن قوالب لفظية يسيرة وموجزة تنطوي وتنضوي تحتها مكنوناتٌ معنوية واسعة، وأرجاءٌ دلالية هائلة، ومقاصد تربوية وتشريعية مترامية يتعذر الإحاطة





بها عبر محدود الزمان والمكان! آتسمتْ تلك القوالبُ بالجود والعطاء الثرِّ، والسخاء في أكثر من وجه أو وُجْهة!

والذي أعنيه بـ(الحركة الانتشارية للمعنى في القرآن الكريم) – وهو ما وقع عليه آختياري عنواناً لهذا البحث – : جمعَ القرآن المجيد للمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة؛ ذلك أنه صيغ في أسمى درجات البلاغة والإيجاز! أو هي تطويعُ الكلمات اللغوية المحدودة والمعدودة – على كثرتها – وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف والمعاني المختلفة؛ ما ينتج عنه آنفتاحٌ وآنسياحٌ دلاليٌّ على مستوى الألفاظ والتراكيب، فيه من السخاء والسعة والتيسير ما لا يخفى ولا يخافُ عَيْلةً، ولا يُمسك خشية الإنفاق، ولا يتلفَّتُ وراءه إلى مواطئ الأقدام أو عواقب الإقدام!

وقد آقتضتْ طبيعةُ البحث ومنهجيته أن يقوم على ثلاثة مباحث، يتناولُ الأوَّلُ منها مدى الحاجة إلى تلك الظاهرة. في حين جاء المبحث الثاني بعنوان: (معاني القرآن الكريم بين الحركة الانتشارية والدلالة المباشرة). وعقدتُ المبحثَ الثالثَ والأخيرَ لأعرضَ فيه أمثلة تحليلية لظاهرة (آنتشار المعنى) في القرآن الكريم. وجاءتْ بعد ذلك خاتمةُ البحث لتتضمَّن أهمَّ النتائج التي توصَّلتُ إليها، يتلوها ثبتٌ بأهمَّ المصادر والمراجع التي أفدتُ منها في إثراء المادَّة العلمية للبحث.

المبحث الأول: مدى الحاجة إلى تلك الظاهرة

قال آبن فارس رحمه الله: ((آعلمْ أنَّ لغة العرب لم تنتهِ إلينا بكلِّيَّتها، وأن الذي جاء عن العرب قليلٌ من كثير، وأن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله!))(١)، ولو صحَّ الإشعار بهذا الإعلانُ الخطير من واحدٍ من أساطين اللغة وفرسانها المفلقين؛ فلا بدَّ من العلم بأن الأصل في وضع هذا القليل من الألفاظ في منطق اللغة ذاتها: أن يكون لكُلِّ معنىً يجولُ في الخاطر لفظٌ واحدٌ يُعبِّر عنه، ويومئُ إليه من قريب، ويكون تَرْجُماناً له، وأن يكون للكلمة الواحدة معنىً واحدٌ أيضاً لا عديلَ له ولا بديل(٢)!

هذا ما حكم به ذلك الإعلانُ الخطيرُ؛ بَيْدَ أن آستقراءَ الواقع تؤازرُهُ الحركةُ الانتشارية للمعاني الكامنة في النصوص يُصرَّان على إعادة فتق الرتق الذي أصاب

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م



الألفاظ، وعلى ترميم هذا القليل الواصل إلينا وتنميته وتكثيره لا بألفاظ مُوازية؛ بلْ بمعانٍ تُنتجُ دفقاً وأُفقاً طليقاً لنسلٍ دلاليٍّ مأمول، وبأبيان الرُّضُوخَ لهذا الحكم الجائر المُقيَّد بأغلال التهادي على أعتاب خطٍّ يتيم مُستقيم لا محيدَ عنه ولا محيصَ، والمُثقل بأعباء التحجيم والتحجير لِلُغةٍ أُريدَ لها من أوّل يومٍ لنشأتها أن تكتنف معاني الحياة وتتربع على عرش الحضارة الإنسانية. وكلُّ تلك الأعباء أمور تُفضي إلى الشلل التام لتلك اللغة، وتؤول بها إلى العجز والإحجام عن مواكبة التطورات وعن تلبية الحاجات، وبالتالي إلى التخلف عن ركب الحضارة والإخلال في أداء رسالة البلاغ والإفصاح والبيان!

ذلك أنَّ التوسُّع بالحركة الانتشارية في معاني الكلمات والنُّصُوص لا تشين اللغة، ولا تُنهكها، ولا تُثقل كاهلها، ولا تدلُّ بحالٍ على ضعفها أو ضيقها وقلة ألفاظها؛ بلْ – على العكس تماماً – تدلُّ على طواعيتها ومُرُونتها وشجاعتها؛ لأنَّ آستعارتها لفظاً واحداً لمُسمَّيات وأشياء ومعاني عديدة إنما هي من آستوائها وآتساقها وآتساعها في الكلام شجاعة وآقتداراً، ليس ضراعة، ولا ضرورة، ولا من ضيق اللفظ عليها؛ ولكنه من الرغبة في الاختصار، والثقة بفهم أهلها بعضهم عن بعض! وما قيل عن اللغة؛ يقال – وأكثر – عن كتابها الأكبر: القرآن المجيد الذي بلغ الذِّروة في إيجاز عبارته وإعجاز إشارته.

يقول المُستشرقُ الإنجليزيُّ «ألفريد غيوم» عن العربية: ((ويسهُلُ على المرء أن يُدرك مدى آستيعاب اللغة العربية وآتِّساعها للتعبير عن جميع المُصطلحات العلمية للعالم القديم بكلِّ يُسرٍ وسُهُولة بوجود التَّعدُّد في تغيير دلالة آستعمال الفعل والاسم))[٣]. ومن هنا؛ فقد عدَّ بعضُ اللُّغويين المُحدَثين تعدُّد مفاهيم اللَّفظ الواحد دليلاً على حيوية اللغة ومُرُونتها وطواعيتها[٤]!

إنَّ قدرة الكلمة في العربية والقرآن على التعبير عن محتوى الفكر الإنساني، أو آستيعاب المعاني المتعدِّدة، وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف المُختلفة وتأدية المعاني المتعددة لَيقومُ دليلاً شاخصاً على الرواء والحيوية التي نتكلَّم عنها، فكيف تستقيمُ الأصواتُ المنادية لفائدة أحادية المعنى؟! ذلك أنَّ اللفظ أُحاديَّ المعنى يُرهقُ الجهدَ الذاكريَّ أيَّما إرهاق[٥]! وفي هذا السياق يقول الدكتور عبد القادر الفاسي: ((... وعليه يكون تعدُّد المعاني دليلاً على حيوية اللغة ورواجها، فكيف يُمكن أن نُنادي بتركه لفائدة

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

أُحادية المعنى؟! علماً بأنَّ أحادية المعنى لا يمكن أنْ تقوم إلاَّ بتحجير اللغة وقتلها والقضاء على حركيتها))[٦].

إنَّ التَّعرُّف على الأبعاد والمجالات الدلالية للكلمة الواحدة تُمكِّننا من آستغلال الطاقات المُتوافرة والمكنونة فيها للتعبير عن خفايا النفس وخباياها، والإفصاح عن دقائق الفكر، وسبر نوازع الوجدان، بما يتلائم مع كافة الظروف النفسية والاجتماعية، ومع سائر السياقات اللغوية المُختلفة؛ لا سيَّما وإنَّ ألفاظ اللغة مهما كثرتْ؛ فهي محدودة من حيث الكمِّ؛ في حين إنَّ المعاني والأفكار والمُدرَكات مُتجدِّدة، مُتطوِّرة، مُتنامية، مُترامية، لا حُدُود لاتِّساعها وآنتشارها. وهذا يعني أنَّ المعاني غيرُ مُتناهية؛ بل هي مبسوطة إلى غير نهاية ومُمتدَّة إلى غير نهاية، والألفاظ - التي هي أسماء المعاني - مُتناهية، وهي مُحصَّلة محدودة ومقصورة معدودة؛ لأنها مُشكَّلة من أصوات، والصوت محدود معدود[٧]!

فالأصل في الألفاظ والتراكيب أن تكون مُختلفة بحسب آختلاف المعاني التي يُراد لها تأديتُها؛ ولكنَّ ذلك لم يكنْ في الإمكان؛ إذ المعاني بلا نهاية، والألفاظ - مع آختلاف تراكيبها - ذاتُ نهاية، وغير المُتناهي لا يحويه المُتناهي؛ فلم يكنْ من بُدٍّ من وقوع آشتراكٍ وآقتصادٍ في الألفاظ بإزاء وقوع آمتدادٍ وآنتشارٍ في المعاني؛ ليسدَّ الأخيرُ النقصَ المحتوم في الأول، ويسيرا معاً مُتآخيين مُتآزرين مُتكاملين في خطٍّ مُستقيمٍ ورحلةٍ قاصدةٍ حتى بلوغ المحطة الدلالية المنشودة بسلام[٨]!

إذنْ، يجوزُ في المعاني التَّنوُّع والتَّعدُّد والانتشار من غير ما ضرورة مُلجئة لأنْ تتغير الألفاظُ إزاءها وتتعدَّد وتزول عن أماكنها، ومن غير أن نُحمِّلَها ما لا طاقة لها به من مُوازاة لفظٍ مُستقلٍّ لكلِّ معنىً! وهذا الحكم يمنح صكَّ الأسبقية للمعاني في الوُجُود النفسي، ويقضي بأنَّ الألفاظ تابعة وخادمة لها في الواقع الكلامي، وهو يفسر مبدأ حقيقة لانهائية المعاني مقابل نهائية الألفاظ.

فالمعاني تفضُلُ - تزيد - عن الأسماء، والخواطرُ تفوقُ بلاغة البلغاء وتزيدُ على رحب الفضاء، والحاجات تجوز مقادير السِّمات، وتفوت ذرع العلامات، والعوالمُ الدلالية «المعاني» تميل إلى التخليق والتوليد والنَّسل والإنتاج والتجديد، ولا تعرف لليأس والعقم والتَّحديد سبيلاً؛ في حين إنَّ الأدوات الدالة على بعض هذه العوالم «الألفاظ» معلومة،



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

محدودة، ذات بداية ونهاية! فلدينا – نحن البشر – زخماً لا حصر له من المعاني التي لا نجد لها ما يُسعفنا من الألفاظ المُناسبة للإفصاح عنها والبوح بها، وكثرةً من الأفكار يستعصي علينا التعبير عنها في كثير من الأحيان(٩)!

ويُمكنُ تمثيلُ ذلك بالطيف الشمسيِّ الذي يحوي سبعة ألوان معلومة وواضحة ومُحدَّدة؛ مع أنَّ مناطق تداخل هذه الألوان تحوي ظلالاً شتى دقيقة لطيفة من الألوان ليستْ لدينا أسماء لتسميتها! وكذلك كثير من حالاتنا الشعورية والوجدانية!

وهكذا يبقى المخزونُ اللفظيُّ للُّغة – مهما آتَّسع وآنتشر وتنامى – قاصراً عن الوفاء بمطالب التعبير؛ ولا سيَّما في مجال الأفكار المُجرَّدة، ونوازع النفس البشرية المُترامية، وآنفعالاتها وأحاسيسها المُتشعبة المُتنامية؛ فلا غنى للإنسان في تواصله ونشاطه اللغوي بمُختلف أشكاله – والحال تلك – عن آستعمالٍ آخرَ أو آستعمالاتٍ أخرى مُتعدِّدة للكلمات التي يضعُها أو يَرِثُها!

ومن هنا مسَّتِ الحاجة لأنْ تكون حركة الكلمات المُعبِّرة عن تلك المعاني ذاتَ طاقة آستيعابية كامنة لائقة لديمومتها والدفع بعجلتها قُدُماً نحو الأمام، ولا يتأتَّى لها وقود تلك الطاقة الكامنة إلا بفعل حركتها الديناميكية الانتشارية الخلاَّقة بمفهومها الواسع؛ فمن خلالها تتمكَّن من التَّقلُّب في أعطاف نعيم دلاليّ تنقطع دُونه أماني الكلمات أو الألفاظ الكالَّة الحسيرة! وهذا تصداق قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَانَ]؛ إذ إن ﴿كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ هي المعاني المُنبثقة عن ألفاظه المُباركة، لا الألفاظ ذاتها؛ فإنها محدودة، معدودة! ((والقرآن كما نعلم في أعلى درجات البلاغة؛ يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة))(١٠)؛ فنجده على الدوام يستثمر أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه، يستوي فيها مواضع إجماله التي يُسمِّيها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يُسمُّونها مقام الإطناب؛ ولذلك نُسمِّيه إيجازاً كلَّه؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أنَّ مراميه في كلا المقامين لا يُمكنُ تأديتها كاملة العناصر والسمات بأقل من



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

ألفاظه ولا بما يُساويها؛ فليس فيه كلمة إلا هي مفتاحٌ لفائدة جمة، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى؛ عرف ذلك من عرفه، وجهله كثير(١١).

إنَّ وُجُود كلمة مستقلة خاصَّة بكلِّ شيء نتداوله في واقعنا اللغوي – كما أومأ إليه آنفاً الأصلُ في وضع الألفاظ – أمرٌ في غاية الصُّعُوبة والعُسْر؛ لأنه يفرض بلا شكٍّ عبئاً ثقيلاً على الجهد الذاكري! زِدْ على ذلك أننا – ونحن المخلوقون ذوو النقص – مهما أُوتينا من ملكة البيان؛ فبيانُنا لا يفي بما في نفوسنا من الأفكار والتَّصوُّرات، وملكاتنا لا تسعف ما نروم الإفصاح عنه من الأغراض والمقاصد؛ فقد تتناسق في نفس أحدنا وتنهال عليه المعاني الكثيرة؛ فإذا طفق يترجمها بكلامٍ منطوق، أو يُعبِّر عنها بآخر مكتوب؛ إذا به يُخفق ويخذله التعبير أو يخونه؛ فيأتي بيانُهُ دُون ما يصبو إليه من مستوى الإلقاء لفظاً أو التعبير خطأً؛ ذلك لأنَّ فنية التصوير في الإنسان تكون دائماً وأبداً أقلَّ من عُمق التصوُّر! وهذا أمرٌ مشترك بين جميع البلغاء؛ فنقَّبوا في أفنان البلاغة وأغوارها هل من محيص؟! حتى وجدوا في الاشتراك والوُجُوه والاقتصاد اللفظي، وفي الانتشار والتوسع والامتداد المعنوي، وفي الإشراف الانفتاح والانسياح الدلالي ما يُسعفهم في الإفصاح عن أغراضهم، ويغيثهم في التعبير عن مقاصدهم؛ وإن كان محصولهم من ألفاظ اللغة قليلاً، ودُونما أدنى تعرُّضٍ لما قد يُجهد رصيدهم اللغويَّ، أو يُرهق ذاكرتهم، أو يعصر أذهانهم، أو يُبعثر قاموسهم اللفظيَّ الذي لا يجاوز لدى أحدهم في أوج أحوال ثرائه العشرة آلاف لفظ(١٢)!

وبذا غدا في ٱستطاعة اللغة أن تُعبِّر عن الأفكار المُتعدِّدة والمُتجدِّدة بوساطة تلك الطرق الحصيفة؛ التي تتمثل في تطويع الكلمات وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف والمعاني المختلفة، وبفضل تلك الوسائل ٱكتسبتِ الكلماتُ نفسُها نوعاً من المُرُونة والطواعية، وٱزدانتْ برصيدٍ طيّب من المعاني والدلالات ما كانَتْ تتطلَّع لأنْ تستأثر منه بمكان أسمى، أتاحَ لها دفقاً دلالياً معطاء ومُلكاً تعبيرياً فسيحَ الأرجاء لولا رُضُوخها لحُكم تلك الوسائل عليها؛ فقبلت بموجبها الاستعمالات الجديدة الوافدة من غير أن تفقد معانيها القديمة البائدة!

وإذا كان في الاشتراك والاقتصاد اللفظيِّ، وفي الانتشار والامتداد المعنويِّ، وفي الانفتاح والانسياح الدلاليِّ ما فيها من السَّخاء والسَّعة والتيسير؛ فإنَّ في أُحادية المعنى



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

ما فيها من التضييق والشُّحِ والتقتير؛ إذ إنه على خلاف الأصل؛ لأنه طريقٌ مُفضٍ إلى الإسراف في الألفاظ وٱستهلاكها وإنفاقها والتكرار فيها، وهذا خلافُ المُمكن والمعقول؛ لأنَّ الألفاظ محصورة والمعاني غير محصورة؛ إذ الألفاظُ مُركَّبة من الحُرُوف الهجائية على أوضاع مُعيَّنة؛ فلا بدَّ أن تقف عند حدٍّ مُعيَّن! أما المعاني؛ فهي بنات المحسوس، ونتاج المعقول؛ فلا يُعقلُ أن تقف عند حدٍّ؛ وعلى هذا ينبغي أن يكون الأصلَ الاقتصادُ والإيجازُ في الألفاظ بقدر الطاقة؛ ومن ثم ينبغي أن لا نقول بأحادية المعنى إلا حين تُعيينا الحيلة، ويتعذر الحمل على غيرها؛ لأنها حركة ٱنتشالية للمعنى من عنفوان حركته الانتشارية!


العدد
٥٨

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

ولمَّا كان القرآنُ الكريم يوظف اللغة توظيفاً جمالياً فنياً مُوجزاً ومُعجزاً، ولما كانت الألفاظُ سُدى التعبير ونسيجَه ولونَه ووشيَه؛ فقد تعامل معها القرآنُ الكريم تعامُلَ المُستهلِك والمُنتِج؛ فاستهلك طاقاتِها الدَّلالية كلَّها؛ بأن نجَّم عن خبايا فُيُوضاتها وتجلِّياتها الفنية؛ فانتهى إلى مدارج كمالها الدلالي؛ وبذا يكون قد أنتجها إنتاجاً فريداً، بالغاً من الجودة مُنتهاها؛ فجاءتْ ألفاظه مشدودة دوماً إلى حفزٍ دلاليٍ يتناسلُ، وهذا التناسُلُ الدلاليُّ يُعدُّ بحقٍ واحداً من أجلِّ مظاهر التأثير والفن، وأجلى سُبُل بعث الجمال في آفاق الخطاب الإلهيِّ المهيب، وأبرز هواتف الوحي الإيماني المُعجز.

تأتي – إذاً – الألفاظ في السياق القرآنيِّ محفورة، منحوتة، مملوءة دلالة وإشارة وإيماءً وإيحاءً؛ فليس للمتأمل فيها الحقُّ بأن يقف عند حُدُود الأبعاد المادِّية لهذه الألفاظ؛ فالقرآن المجيد حين ٱستعملها لم يكنْ ليقفَ عند تلك الدلالات المحدودة؛ فجاء حريصاً قاصداً إلى الانتشار حتى بلوغ الإشباع الدلاليِّ لهذه الألفاظ من الصوت والمعنى الأساس، إلى الإشارة والرمز، فالمعنى العاطفيِّ والإيحائي(١٣).

وبذا يمتاز الأداء القُرآنيُّ بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيِّزٍ يستحيل على البشر أن يُعبِّروا فيه عن مثل هذه الأغراض؛ وذلك بأوسع مدلول، وأدقِّ تعبير وأوجزه، وأجمله وأبهاه! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة؛ فتنضمُّ إلى جمال التعبير دقة الدَّلالة؛ بحيث لا يغني لفظٌ عن لفظٍ في موضعه، ولا يجور الجمال على الدِّقَّة، ولا الدِّقَّة على الجمال، ويبلغ من ذلك كلِّه مُستوىً لا يُدرِكُ إعجازَه أحدٌ، كما يفقه ذلك من يزاولون فنَّ التعبير؛ لأنهم وحدهم الذين يدركون حُدُود الطاقة البشرية في هذا

المجال! ومن ثمَّ يتبينون أن هذا المستوى من العبارة والمضمون فوق الطاقة البشرية لا ريب!

وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أُخرى في الأداء القُرآنيّ؛ هي أن النَّصَّ الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة، وكلُّ مدلولٍ منها يستوفي حظه من البيان والوُضُوح دون ٱضطرابٍ وٱرتباكٍ في الأداء، أو لبسٍ وغُمُوضٍ في العبارة، أو ٱختلاطٍ وتداخلٍ بين المدلولات! وكلُّ قضية وكلُّ حقيقة تنال الحيِّز الذي يُناسبها؛ بحيث يُستَشهَدُ بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كلِّ مرة جديداً، أصيلاً في الموضع الذي ٱستُشهِدَ به فيه؛ وكأنما هو مَصُوغٌ ٱبتداء لهذا المجال ولهذا الموضع! الأمرُ الذي لا نجد فيه غيرَ هذا الكتاب الكريم يمنحنا هذا العطاء الثَّرَّ وأكثَرَ من هذا، ويؤتينا كلَّ يوم تصوُّراً جديداً؛ حتى لكأننا نقرأُ في كلِّ مرَّة أول مرَّة، وحين نقرؤه سبعين مرَّة؛ نكون كمن قرأ سبعين كتاباً، ومن يستزد؛ يُزَد! وتلك ظاهرة بارزة فيه(١٤).



٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

المبحث الثاني: معاني القرآن الكريم بين الحركة الانتشارية والدلالة المباشرة

باستطاعة مُتدبِّر كتاب الله ﷻ تمشِّياً مع مراحل التَّنزيل أنَّ يكشف من صور التلاؤُم بين النَّصِ القُرآنيِّ والبيئة التي نزل فيها: البشرية، والزمانية، والمكانية، والحالات النفسية، والفكرية، الفردية والاجتماعية... ما لا يُمكنُ ٱستيفاؤُه بنظراتٍ عامَّاتٍ، وعناصر مُحدَّدات مُفصَّلات. إنها من الأدب الرفيع الذي يتجدَّد عطاؤه كلَّما وُجِد أديبٌ ذوَّاقة مُرهَفُ الحِسِّ، واسعُ التجربة الأدبية، واسعُ الخبرة. وهذا العطاءُ دائمٌ لا يَنضَبُ ما دام التذوُّق الفنِّيُّ والأدبيُّ للقرآن الكريم وآياته البيِّنات، وما دامتْ حركاتُهُ النفسية، وٱنطباعاته الذاتية التي لا يملك الإنسان لها ردًّا، ولا يستطيع لها صرفاً ولا منعاً؛ إذ لا بدَّ أن يُبديها بشكلٍ أو بآخر، ولا بدَّ أن يظهر أثرها في خَلَجات نفْس سامعه وسكناته؛ شاء ذلك أم أبى!

التَّذوُّق؛ ذلك الشُّعُور العجيب، والمعنى الدقيق ذو المجال الرَّحْب، الذي يُحِسُّه ٱبتداءً كلُّ من يُواجِه النُّصُوصَ القُرآنية وينسكب وحيُها في وجدانه بمُجرَّد الاستماع لهذا القُرآن الذي لا تنقضي عجائبُه، ولا يَخْلَق على كثرة الرَّدِّ! وقد يتسنَّى للتالي أو السَّامع وصفُ غيضٍ من فيضِ القيم الشُّعُورية التي تنتابُهُ بكلمات قاصرات ومحدودات، وغالباً ما يعجز عن ذلك! ويرجع هذا إلى الصِّلة التي تربط بين تلك القيم وبين القيم التَّعبيرية؛

إذ قد تجتاحُ الإنسانَ موجةٌ من المشاعر التي لا يجدُ في الكلمات كلِّها ما يفي ويشفي للتَّعبير بها عنها؛ ولذلك ٱكتفى نفرُ الجنِّ المُستمعين لتلاوة النَّبيِّ ﷺ للقرآن للإفصاح والتَّعبير عمَّا شعروا به حين لم يجدوا في الكلمات ما يُسعفهم بكونه ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [سُورَةُ الجِنِّ][١٥].

((﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سُورَةُ سَبَإٍ]... وهذه الإجابة المُجملة تشي بالروعة الغامرة التي لا يُنطَق فيها إلا بالكلمة الواحدة!))[١٦].



وهذا سيِّد قطب رحمه الله يُتحفنا بنبضةٍ يسيرة من قلب ما شعر به هو نفسُه تجاه تلك النُّصوص العلية؛ إذ يقول: ((إنَّ في هذا القُرآن سرَّاً خاصَّاً يشعر به كلُّ من يُواجه نصوصَه ٱبتداء قبل أنْ يبحث عن مواضع الإعجاز فيها! إنَّه يشعر بسلطان خاصٍّ في عبارات هذا القُرآن، يشعر أنَّ هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يُدركها العقلُ من التَّعبير، وأنَّ هنالك عنصراً ما ينسكب في الحسِّ بمُجرَّد الاستماع لهذا القُرآن، يدركه بعضُ الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً؛ ولكنَّه على كلِّ حالٍ موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسِّ يصعب تحديدُ مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصُّوَر والظِّلال التي تشعُّها؟ أهو الإيقاع القُرآنيُّ الخاصُّ المتميِّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللُّغة؟ أهي هذه العناصر كلُّها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيءٌ آخر وراءها غيرُ محدود؟! ذلك سرٌّ مودع في كلِّ نصٍّ قرآنيٍّ، يشعر به كلُّ من يُواجه نصوصَ هذا القُرآن ابتداءً!))[١٧].

لذا؛ فإنَّ من المشاعر التي تنسكب في حسِّ تالي القُرآن أو مُستمعه ما لا يُستَطاع التعبيرُ عنه بالكلمات. وهذا سيِّد قطب ثانية – وحسبُك به؛ فإنَّه كان يضيق لأذواقه وأحاسيسه الفضاء، لا لضيقه؛ بلْ لسعتها – نُلفيه مُقرَّاً باستحالة ذلك؛ إذ يقول: ((إنَّ إيقاع هذا القُرآن المباشرَ في حسِّي مُحالٌ أن أُترجمه في ألفاظي وتعبيراتي، ومن ثَمَّ أُحسُّ دائماً بالفجوة الهائلة بين ما أستشعره منه وما أُترجمه للناس في هذه الظِّلال))[١٨].

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



فليس من السَّهل إذاً أن نُكبِّل المفسِّر، أو المتدبِّر، أو المستمع لآي الذِّكر الحكيم وقد آنسكبتْ في كوامنه كلُّ تلك الفيوضات والمشاعر، وآنتابتْه كلُّ تلك النَّزعات والأحاسيس؛ فنمنعه من التعبير عنها بما يراه مُناسباً من الكلمات، ونقول له: حِجْراً محجوراً؛ ما دام لم يخرجْ عن مَهْيَع(١٩) الكلام العربي البليغ، ولم يشذَّ عن معاني النُّصُوص ودلالاتها وإيحاءاتها، وما دام لم يشطَّ يميناً في فكره، أو يشطح شمالاً في ذكره!

ونستطيع – بعد هذا – القولَ بأنَّ التذوُّق الأدبيَّ للقرآن الكريم وآياته البيِّنات يقوم أساساً على مبدأ الموازنة بين (الذات)، و(الموضوع)؛ فللذَّات حقُّها في جانب الاستغراق في النَّصِّ والشُّعُور به، وللموضوع حقُّه في آلتزام مدلوله اللغويِّ، وحدوده الشرعية، والتنبيه الدقيق إلى المعنى السليم.

إنَّ المُوازنة بين الذَّات والموضوع هي التي تستقرُّ بصاحبها في وسط ميدان التَّذوُّق الأدبي، وبقدر التوازن يكون الاستقرار والثبات والسلامة. فإنْ طغت الذَّاتُ على الموضوع؛ خرج عن نطاقه المحدَّد والمرسوم له، وجنح بصاحبه إلى الخيال الجارف وغير المنضبط، الذي لا يعتمد على قواعد ثابتة، ولا أصول راسخة؛ بلْ نُلفيه يموج ويضطرب كما تضطرب الرِّيشة في الهواء. ومن هنا نفذ الباطنيون إلى الإلحاد في آيات الله ﷻ؛ حيثُ لا آرتباط بالنَّصِّ، ولا تقيُّد بمدلوله، ولا وقوف عند حدوده؛ بلْ آنسلاخٌ منه مُفْضٍ إلى آنسلاخٍ من الدين برمَّته!

وإنْ طغى الموضوعُ على الذَّات؛ خرج عن نطاق التذوُّق الأدبيِّ إلى نطاق التَّفسير العلمي البحت، وضاقتْ جوانب جذبات النَّفس وسبحاتها، وضعفتْ وشيجة آرتباطها بالنَّصِّ، وغدا المفسِّر والنَّصُّ كُتلتين منفصلتين، لا تمازُج بينهما ولا تجاذب. وآنئذٍ يكاد المفسِّر أن يكون مجرَّد آلة دينامية لا تفاعُل ولا آنسجام بينها وبين معمولها(٢٠)!

جاء في (النبأ العظيم)، لدرَّاز تحت عنوان: (البيان والإجمال) ما نصُّه: ((... وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن، ولا تجدها فيما سواه؛ ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم؛ لم تتَّسعْ لتأويل. وإذا أجملوها؛ ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس، أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلامٍ واحد))(٢١).

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م





٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

ولنأخذ أمثلة وشواهد على ما قدَّمناه، تتجلَّى فيها ظاهرةُ الانتشار المعنوي لألفاظ القرآن المجيد:

«الخِلَدَةُ»: جماعة الحُليِ، قال ﷻ: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾ [سُورَةُ الإِنسَانِ]، قيلَ: هو من الخلود؛ بمعنى: البقاء على الصِّغَر بلا موت ولا تغيُّر. وقيلَ: المعنى أنهم مُحلَّوْن ومُسوَّرون ومُقرَّطون بالخِلَدَة؛ وهي الأسورة والقِرَطة. يقال: خلَّد جاريتَه؛ إذا حلَّاها بالخِلَدَة(٢٢).

وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ٢﴾ [سُورَةُ القَمَرِ]؛ أي: قويٌّ مُحكمٌ، من قولك: أمرَرْتُ الحبلَ؛ فهو مَرِيرٌ مُمَرٌّ؛ إذا شددتَه وأحكمتَ فتله. وقيل: المعنى: يمضي ويذهب ويبطُلُ، من: مرَّ يمُرُّ؛ إذا مضى وذهب وزال أثره! وكذا قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩﴾ [سُورَةُ القَمَرِ]؛ أي: دائم الشُّؤم، أو نافذٌ ماضٍ فيما أُمر به وسُخِّر له. وقيل: قويٌّ مُحكم. وقيل: دائمٌ قويٌّ في نُحُوسته. وقيل: مُستمرٌّ بمعنى مُرٍّ؛ من المَرَارة ضد الحلاوة(٢٣)!

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤﴾ [سُورَةُ الصَّفِّ]؛ أي: مُحكمٌ، لاصقٌ بعضُه ببعضٍ وضُمَّ بعضُه لبعضٍ. وقيل: كأنَّما بُني من الرَّصاص؛ يعني: مُحكَماً، وهو قريبٌ من الأوَّل؛ فـ((لا سبيل إلى احتساب معنى الكلمة أمراً ثابتاً؛ بل لا بدَّ من تصوُّره في نُمُوٍّ مطَّرد وتحوُّل مستمرٍّ دائب))(٢٤).

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ٢٢٤﴾ [سُورَةُ]، وردتْ كلمة «عُرضة» فى اللُّغة بمعنى: كلُّ شيءٍ اعترض ومنع. كما وردتْ بمعنى: الشيء المُعرَّض المبتذل بكثرة حتى يغدو هيناً رخيصاً(٢٥)! والآية صالحةٌ – بحكم ظاهرة الانتشار المعنوي – للدَّلالة على كلا المعنيين.

ووردتْ لفظة «المُطفِّفين» في القرآن الكريم بمعنى: الذي يزيدُ في الكيل لصالحه، وبمعنى: الذي ينقص فيه لصالح الآخر(٢٦)، وقد وردتْ مُفسَّرةً في قوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣﴾ [سُورَةُ المُطَفِّفِينَ].



((إنَّ القُرآن الكريم يستثمر دائماً برفق أقلَّ ما يُمكنُ من اللَّفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني. أجل؛ تلك ظاهرة بارزة فيه كلِّه؛ يستوي فيها مواضع إجماله التي يُسمّيها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يُسمُّونها مقام الإطناب؛ ولذلك نُسمِّيه إيجازاً كلَّه؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجوز سبيل القصد، ولا يميلُ إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أنَّ مراميه في كلا المقامين لا يُمكنُ تأديتُها كاملةً العناصر والحُليِّ بأقل من ألفاظه ولا بما يُساويها. فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى))(٢٧).

وبذا لا يغدو فعل المتلقي وٱستجابته للتعامل والتفاعل والتحليل مقتصرين على مستوى المعنى الأول والأوحد للنص؛ وإنما نلفيه سائراً على مستويات مُتشعِّبة تتجاوز ظاهر الدلالة إلى أنظمة تنبثق وتتولد وتنمو وتتضاعف بحسب القراءة، وهي بذلك تتجاوز مجرد تركيب الجملة إلى بناء سياقات عديدة موغلة وفعالة تتعامل من خلالها مع السياقات السابقة واللاحقة، وتعمل على إعادة تنظيم الوحدات اللغوية للنص القرآني الكريم وهيكلتها وتحريكها بحركات ليست ذاتية التوجُّه؛ بل هي ٱنفتاحية، ٱنتشارية، مُنظَّمة، قابلة دوماً لأن تكون منطقاً قرائياً جديداً.

ومن هنا، يمكننا وصف الجملة القرآنية الفريدة المُعجزة بأنها ٱنتشارية، تراكمية، قائمة على تركيز المعنى وإيجازه، مع الوفاء به، وٱشتماله والإحاطة بحيثياته من جميع الجوانب! وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ لُقْمَانَ]!

يقول درَّاز: ((إني أقرأ القرآن؛ فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية: فمن حروفهم رُكِّبَتْ كلماتُه، ومن كلماتهم أُلفتْ جمله وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، فأي جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنيتها؟! وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها، حتى نقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟!



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

إنَّ القُرآن الكريم لم يخرج في لُغته عن سَنَن العرب في كلامهم إفراداً وتركيباً، فذلك في جملته حق لا ريب فيه؛ وبذلك كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في قطع الأعذار ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴿٤٤﴾﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ].

... فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يوماً أو بعض يوم؛ بَلْ على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلاً. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان... فإنْ أحببْتَ أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعدُ لم تُرزق قوة الفصل بين درجات الكلام؛ فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مُسلَّماً عن أهله، وتقنع فيه بشهادة العارفين به.

... وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والمَيْز بين أساليبه؛ فاقرأ ما شئت من خُطب العرب وأشعارها، وحكمها وأمثالها، ورسائلها ومحاوراتها، متتبعاً في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على ٱختلاف طبقاتها، ثم ٱفتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وٱنظر ماذا ترى؟!

أُسلُوبٌ عجبٌ، ومنهجٌ من الحديث فذٌّ مبتكر... لا ترى سابقاً جاء بمثاله، ولا لاحقاً طبع على غِرَارِه، فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء؛ لدلَّت على مكانها، وٱستمازت من بينها، كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام))(٢٨).

إنَّا كثيراً ما نرى هنا وهناك أن القرآن يعمد – بعد حذف فضول الكلام وزوائده – إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتمُّ الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلماتٍ وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

كله بجلاءٍ ووُضُوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتى يُخيَّل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلاً.

فإذا ما طلبنا سرَّ ذلك؛ رأيناه قد أودع معنى الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأُسلوب إدارة عجيبة وأمرَّ عليها جَنْدَرة البيان بيد صَنَاع؛ فأحكم بها خلقه وسوَّاه. ثم نفخ فيه من رُوحه، فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نيِّر مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطيٍّ، ولا بما صار إليه من آستغناء وآكتفاء، إلا بعد تأمُّلٍ وفحصٍ دقيق. فالشأو الذي بلغه القرآن الكريم في هذا الباب – كغيره من أبواب البلاغة – ليس في مُتناول الألسنة والأقلام، ولا في مُتناول الأماني والأحلام[٢٩].



إنَّ القرآن الكريم تعبير بياني مقصود؛ أي أنَّ كلَّ كلمة وكلَّ حرف فيه وُضع وضعاً مقصوداً، وإنَّ الكلمة فيه أشبه بالعضو في جسم الإنسان وهو يؤدي وظيفته عندما يكون في موضعه، فإذا زايله إلى موضعٍ آخر؛ تغيَّر حالُ الجسم وآعتلَّ، وآختلَّ توازنه! بهذا المقياس الحكيم، والقسطاس المستقيم كانت كلماتُ القرآن الكريم طبقاً لمعانيه؛ بحيث آسترعتْ ألفاظه وفصاحته أنظار العلماء، وآستجلبت آهتمامهم، وآستفرغت جهودهم، وخلبت ألبابهم. وهكذا دائماً: لكلِّ مقامٍ مقالٌ في التعبير القرآني.

قد تطالعنا لغة القرآن أحياناً بعناصر تركيبية غامضة ومُحيّرة لا يُعرف لها وجه مُحدَّد أو قرار ثابت، ولا يُمكنُنا أن نجد لها أسباباً تُفسِّرها سوى طبيعة تلك اللغة العلية؛ إذ تواجهنا هذه العناصر المُحيّرة بعبارات لم تخرج عن القاعدة، ولم يؤثر فيها أمرٌ سياقي! ويتجلى هذا بمظاهر متنوعة وكثيرة؛ من ذلك مثلاً: أن يصلح الموقع الذي يشغله لفظٌ ما في نمط تركيبي معين لغير ما وجه؛ لعدم وجود قرينة حاسمة؛ فقد يحتمل الموقع التركيبي عدَّة وُجُوه، يتحدَّد كلُّ واحد منها بقرينة ما، وعندما تغيب هذه القرينة عن اللفظ لأسباب تقتضيها طبيعة لغة القرآن الكريم؛ تتعدَّد الأوجه! وقد يصلح الموقع الذي تشغله كلمة ما لغير ما وجه، وتلك بعينها هي الحركة الانتشارية للمعاني في النصوص؛ إذ تُولِّد تعدُّداً في المعاني!

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م



وقد يحتمل الموضعُ الواحد من الآية القُرآنية أوجهاً إعرابية مُتعدِّدة، وهذا يؤدّي بالنتيجة إلى ظهور معانٍ متعدِّدة بتعدُّد تلك الأوجُه. والبحث عن الوجه الإعرابيّ الصواب يصل بالقارئ إلى المعنى المراد الذي سيقتْ الآية من أجل بلوغه والهدف الذي رامت تحقيقه؛ فتعدُّد تلك الأوجه الإعرابية ليس ((مُجرَّد آستكثار من تعبيراتٍ لا طائل تحتها كما يتصوَّر بعضُهم، وإنَّ جواز أكثر من وجهٍ تعبيري ليس معناه أنَّ هذه الأوجه ذات دلالة معنوية واحدة، وأنَّ لك الحقَّ أنْ تستعمل أيها تشاء كما تشاء؛ وإنما لكلِّ وجهٍ دلالتُه. فإذا أردتَ معنى ما؛ لزمك أنْ تستعمل التَّعبيرَ الذي يؤيّده... فالأوجهُ التعبيرية المُتعدِّدة إنما هي صورٌ لأوجه معنوية متعدِّدة))[٣٠]. ومن هذه الأوجه الانتشارية للمعنى – وهي جدُّ كثيرة – ما يأتي:

❖ قوله ﷻ: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۝٧٢﴾ [سُورَةُ طه]؛ ففي قولهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ وَجْهان:

☜ أي: ولن نُؤثرك على الذي فطرنا. فالواو فيها عاطفة.

☜ نُقسمُ بالذي فطرنا أنا لن نُؤثرك على ما جاءنا من البيّنات مهما فعلتَ بنا، ومهما قضيْتَ؛ فاقضِ ما أنت قاضٍ، إنَّما تقضي هذه الحياة الدُّنيا.. فالواو هنا للقَسَم[٣١]!

❖ قوله ﷻ: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۝١﴾ [سُورَةُ المُمْتَحنَة]؛ إذ تتردَّد صيغة ﴿أَعْلَمُ﴾ في الآية الكريمة بين كونها وصفاً، أو فعلاً مضارعاً، أو أفعل تفضيل. ولا مانع من إرادة ثلاثة المعاني جميعاً.

❖ قوله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [سُورَةُ الإسْرَاءِ]؛ إذ تحتملُ صيغة ﴿أَعْمَىٰ﴾ الثَّانية في الآية الكريمة الاسمية على أنها خبر، وتحتملُ أيضاً التَّفضيل؛ أي أشدُّ عَمَىً! ولا ضير من إرادتهما معاً.

❖ قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [سُورَةُ يس]؛ إذ يجوزُ في ﴿مَّآ﴾ أن تكون نافية، وهو الظَّاهر؛ أي: لم يُشاهدْ آباؤُهم نبيَّاً، وآستُدلَّ عليه بقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۝٤٤﴾ [سُورَةُ سَبَإٍ]. ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: لتُنذر

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

قوماً بمثل ما أُنذر آباؤهم؛ فيكون آباؤهم مُنذَرين أيضاً. ويجوزُ أن تكون اسماً موصولاً بمعنى «الذي»؛ بدليل قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [سُورَةُ فَاطِر](٣٢).

❖ قوله ﷻ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧﴾ [سُورَةُ عَبَسَ]! بمعنى: أيُّ شيءٍ أكْفَرَه! وما الذي حمله على الكُفر؟! على الاستفهام. وجائز أن تكون «ما» تعجبية؛ إذ من عادة العرب إذا تعجبوا من شيء؛ قالوا فيه: قاتله الله ما أحسَنَه! أو ما أقبَحَه! أو ما أجرأه؛ أي: أعجبوا لخلقه من نطفة مع كفره بربه(٣٣)!

❖ قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ۝٢٨﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ]، قُرِئَتْ: ﴿مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾(٣٤). وأحد الأحرف السبعة وجملة الوجوه اللفظية المختلفة التي أُنزل عليها مجموع القرآن الكريم كما هو معلوم ومُسلَّم به: (الاختلاف في وجوه الإعراب)؛ بل قد يكون أولها وأولاها وأهمَّها(٣٥).

❖ قوله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۝٨﴾ [سُورَةُ المُنَافِقُونَ]؛ على الفَاعِلية والمَفْعولية. وقُرِئَتْ: ﴿لَيَخْرُجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ على الحال؛ أي: ليَخْرُجَنَّ الأعزُّ منها ذليلاً(٣٦)!

❖ قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١٦١﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]؛ أي: يخون، يُقال: غلَّ الجازرُ من اللَّحْم؛ إذا خان وسَرَق منه. وقُرِئَ: ﴿يُغَلّ﴾ على البناء للمجهول؛ أي: لا ينبغي ولا يليق بمقامه العليِّ أن يُنسب إلى الغُلول، يُقال: أغلَّ فُلانٌ فُلاناً؛ إذا نسبه إلى ذلك(٣٧).

❖ قوله ﷻ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۝٣٧﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]؛ على أنه المفعول المُناط به فعلُ الكفالة. و((قُرِئَتْ بالتَّخْفيف ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا﴾(٣٨)؛ على معنى الفاعلية؛ أي إنَّ زكريا عليه السلام هو الذي قام بكَفَالتها وحفظها من كلِّ ما يَسُوؤُها، وتكفَّل بأمرها))(٣٩).



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

❖ قوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]؛ قرأ ٱبنُ عامر وحَمْزة والكسائي وعاصِم وشعبة والحسن وخَلَف: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ﴾(٤٠).

فمن أسباب ٱختلاف المفسِّرين: الاختلاف في وجوه الإعراب؛ فلا شك أن للإعراب تأثيره في المعنى؛ إذ ليس بين الفاعل والمفعول به مثلاً إلا الضبط بالشكل، ويكفر من لحن متعمداً في قوله ﷻ: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ] لو قرأها بكسر اللام من ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾! وكذا قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ الحَشْرِ]، لو قرأها بفتح الواو من ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾! وها أنت ذا ترى أنه ليس بين الكفر والإيمان إلا حركة واحدة! كل هذا يدل على ما للقراءة والإعراب من تأثير في المعاني(٤١).

وإذا كان المتلقِّي يتميَّز عن سواه بجِبلَّته التي فطره الله ﷻ عليها، وبتكوينه الثقافي؛ فقد يصعب أن يكون معنى الكلام واحداً عند كلِّ الناس. ولعلَّ الأمر يزداد تعقيداً كلَّما سما الأُسلوب بأدبيَّته، فمن المعروف أنَّ هذا الأُسلوب يعتمد الحذف، والاتِّساع، والفصل، والتقديم والتأخير... وغير ذلك من ظواهر يلجأ إليها؛ فتتوسَّع وتتلوَّن دائرة الاحتمالات في فهم المعنى المُراد وتنتشر ٱنتشاراً معنوياً ملحوظاً!

ويبدو أنَّ الأُمور التي أدَّت إلى تعدُّد فهم المعنى وٱنتشاره وٱحتماليته، وٱنعكست على تحليل اللَّفظة أو العبارة تتمثَّل بـ((قدرة الكلمة على التَّعبير عن مدلولات مُتعدِّدة، وهي خاصِّيَّة من الخواصِّ الأساسية للكلام الإنسانيِّ، وإنَّ نظرةً واحدة في أيِّ مُعجمٍ من معجمات اللغة لتعطينا فكرةً عن كثرة وُرُود هذه الظَّاهرة؛ بلْ إنَّ شحنة المعاني التي تحملها بعض الكلمات تدعو إلى الدَّهشة؛ ولا سيَّما تلك الأفعال الكثيرة الشُّيُوع والذُّيُوع؛ مثل: «يعمل»، و«يقوم»، و«يضع»... إلخ، وقد تعيش المدلولات القديمة جنباً الى جنب مع المدلولات الجديدة، وهي ظاهرة ينفرد بها المعنى، ولا تشاركه فيها الأصوات، أو القواعد النَّحوية والصَّرفية))(٤٢).





٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

فالكلمة المفردة في أية لغة لها فائقُ ((القدرة على ٱتخاذ دلالات مُتنوّعة تبعاً للاستعمالات المُختلفة التي تستخدم فيها، وعلى البقاء في اللغة مع هذه الدَّلالات، ومن ثمَّ أداء عشرات من وظائفها بسهولة ويُسر؛ إذ إنَّ خلق معانٍ جديدة لها لا يقضي بالضَّرورة على المعاني السَّابقة؛ فيمكن لكلِّ المعاني التي ٱتَّخذتها أن تبقى حيَّة في اللغة، وحركةُ التَّغيُّرات المعنوية تسير في كلِّ الاتِّجاهات حول المعنى الأساسيّ؛ ولكنَّ كلَّ واحدٍ من المعاني الثانوية يمكن أن يُصبح بدوره مركزاً جديداً للإشعاع المعنويّ))(٤٣).

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإنَّ تعيين المدلول الرَّئيس للَّفظ المجمل أو المُشترك بحاجة إلى مزيد من الوعي اللُّغوي؛ بحيث لا يلزم من تحديد مدلوله النَّواة تعطيل لمطاطيَّة الألفاظ الانتشارية داخل النِّظام اللُّغويِّ التي هي طبيعة كلِّ عناصر اللُّغات التي تنزع نحو التجدُّد والتغيُّر والتكيُّف مع الأوضاع المُستجدَّة؛ وإن كان الغالب من العناصر اللُّغوية هي المفيدة لمدلولٍ واحدٍ نواة(٤٤).

كما تتمثَّل الأُمور المُؤدِّية إلى تعدُّد فهم معنى الكلمة اللُّغوية وٱنتشاره بمعطياتٍ سياقية غائبة؛ مثل غياب المقام، وغياب الأداء، وبمعطيات سياقية حاضرة مُستمدَّة ممَّا يُشكِّل المعنى، كما تتمثَّل بظاهرة الغُمُوض التي تطالعنا أحياناً في عبارات النُّحاة من غير أن يقصدوها، وفي بعض الألفاظ المشكلة؛ كتلك التي وردتْ في القرآن الكريم، والسُّنَّة المطهَّرة على نطاق محدود. وإذا كان المقامُ عنصراً أساسياً من عناصر المعنى؛ فإنَّ غيابه قد يجعل المعنى الدَّلالي مُحتملاً لغير ما وجه؛ ممَّا يُؤدِّي إلى تعدُّد في فهم المعاني وٱنتشارها في فضاء هذا النص العربي أو ذاك النص القرآني.

ويبدو أنه كلَّما كان وصفُ المقام أكثر تفصيلاً؛ كان المعنى الدَّلاليُّ أكثر وضوحاً؛ لذا فإنَّ غياب المقام يُؤثِّر تأثيراً مباشراً في فهم الكلام؛ فيجعله يحتمل غير ما معنىً(٤٥).

ومن هنا، يمكننا وصفُ الجملة القرآنية الفريدة المُعجزة بأنها تراكمية، قائمة على تكثيف المعنى وٱنتشاره وإيجازه؛ من خلال تأدية أكبر قدر من المعاني بأقل قدر من الألفاظ، مع الوفاء بتلك المعاني، والإحاطة بحيثياتها. كما يمكن وصفها بأنها متجدِّدة المعاني والدَّلالات أبداً ما بقيت السَّموات والأرض! وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا

لِكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ [سُورَةُ الكَهۡفِ]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ [سُورَةُ لُقۡمَانَ]!

إنَّ من دلائل الإعجاز في التعبير القرآنيِّ، أو من دلائل الإعجاز في عبارة القرآن: ((تميُّزه عن غيره من الكلام البليغ بكثرة الاحتمالات؛ فإنَّ كلام البشر كلَّما كان أبلغ؛ كان أدلَّ على المطلوب، وأبعد عن الاحتمالات. في حين إنَّ القرآن بما إنه صوت الغيب المُوجَّه إلى مسامع الدَّهر، يعي كلَّ زمن من أزمنته وكلَّ معنىً من معانيه بقدر ما يكون فيه من مقاييس الفكر وتطوُّرات العلم؛ فمن ثمَّ تجد الإنسان في كلِّ عصر يشعر إذا تلا القرآن أنَّ حقائقه تتجلَّى أكثر ما تتجلَّى في العصر الذي هو فيه... ولا تجد ما يدلُّ على التَّصادم بين نصوص القرآن ومدلولات العلم؛ وإن ٱختلفتْ أطوارُ العلماء، وتباينتْ مذاهبُهم العلمية، وتصادمت آراؤهم. فكيف وسع هذا القرآن الدَّهر كلَّه، وجاءت عباراته – مع بلاغتها التي تنحطُّ دونها بلاغة البُلغاء – مُنسجمةً مع أفهام النَّاس المُختلفة باختلاف الأطوار الثقافية؟!))[٤٦].

لقد وردتْ ألفاظ كثيرة في القرآن المجيد ألفى المُفسِّرون أنفسهم إزاءها مضطرِّين لإيعازها إلى معانٍ عديدة محتملة؛ بيد أنَّ ذلك لا يحول دون كون بعضها أقرب إلى ذهن السَّامع من بعض؛ لشهرته وتداوله، وكثرة ٱستعماله، في أحد معاني اللَّفظ[٤٧]، وعلى تلك الشَّاكلة يقاس كلُّ ما شاكل ذلك من الأمثلة والشَّواهد التي تحمل بين جوانحها ٱشتراكاً في اللَّفظ وتنوُّعاً وٱنتشاراً في المعنى والمدلول، وما أكثرها في كتاب ربِّنا ﷻ! إذ إنَّ واحداً من أسخى منابع العطاء في القرآن المجيد ولغته الثرَّة وأجودها: ٱجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة في اللَّفظ الواحد وفي كلام واحد. فإذا ورد أكثر من معنىً لغويٍّ صحيح تحتملها الآية بلا تضادٍّ؛ وجب تفسير الآية بها جميعاً[٤٨].

أما إذا كان المعنى مفهوماً على ٱتِّساقه على كلام واحد؛ فلا وجه لصرفه إلى كلامين أو أكثر. كما إنَّ إبقاء اللَّفظ على معناه الشَّائع والمتعارف أولى من إخراجه عنه إلى معانٍ بعيدة؛ بمعنى أولوية تأويل معاني القرآن الكريم التي من شأنها تعدُّد الاحتمالات وٱنتشار المعاني على المفهوم الظَّاهر من الخطاب دون الخفيِّ الباطن منه؛ حتى يقوم



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



الدَّليل القاطع القاضي بإرادة جميع المعاني، أو الحاكم بمعنىً على خلاف دليله الظَّاهر والمتعارف بين أوساط من نزل القرآن الكريم بلسانهم؛ فيجب التسليم له آنئذ(٤٩).

وقد بيَّن لنا الراغب الأصفهانيُّ رحمه الله في «مقدِّمة التفسير» بأنَّ الأصل في الألفاظ والتراكيب أن تكون مُختلفةً بحسب آختلاف المعاني التي يُرادُ لها تأديتها؛ ولكنَّ ذلك لم يكنْ في الإمكان؛ إذ المعاني بلا نهاية، والألفاظ – مع آختلاف تراكيبها – ذاتُ نهاية، وغيرُ المتناهي لا يحويه المتناهي؛ فلم يكنْ من بُدٍّ من وقوع آشتراكٍ وآنتشار وتراكمية في الألفاظ(٥٠).



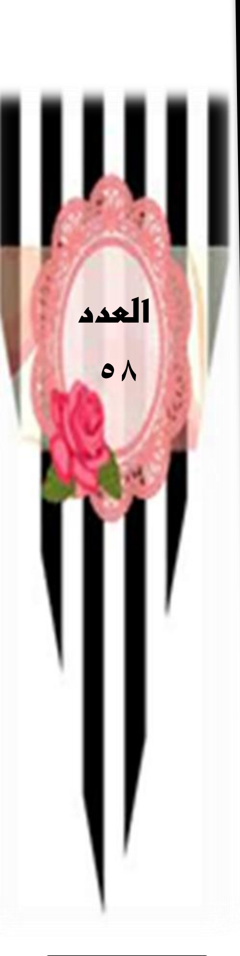
إنَّ ((الكلام الذي يمكن أن يدلَّ على معنيين فأكثر معاً في وقت واحد مع عدم التَّضادِّ بينها، ولا دليل يدلُّ على صرف الكلام عن أحدها، ويُبيِّن أنه غيرُ مُراد؛ فإنَّ المعاني تكون مُرادة معاً، ويُحمَل الكلام عليها معاً... وهو من الفنون البلاغية العالية القائمة على الإيجاز، والتي فيها عطاء فكريٌّ ثرٌّ، وإمتاع للأذكياء، وفيه آستغناء عن ذكر اللَّفظ مُراداً به بعض ما له من معانٍ بقرينة، ثمَّ ذكرُه مُراداً به بعضٌ آخر بقرينة أُخرى. فذكره مرَّةً واحدة مُراداً بها جُملة المعاني التي يدلُّ عليها أوسعُ لدلالته، وأعمُّ لفائدته، وأثرى لمعانيه.

إنَّ الكلمات، أو الجمل القرآنية قد تكون ذوات أكثر من دلالة، وإنَّ بعض هذه النصوص صالحة لأنْ توحي بأكثر من معنىً، وإنه لا داعي لصرف النصِّ عن أحدها وقصره على واحدٍ منها دون غيره؛ لما في ذلك من تحكُّمٍ يأباه العقل، وتأباه اللغة، وتأباه الأساليب البيانية الرَّفيعة.

إنَّ من الأمثل والأفضل في تدبُّر كلام الله ﷻ حمل النصِّ على كلِّ المعاني التي يُؤيِّدها الواقع، أو العقل؛ تمشِّياً مع عطاء القرآن الثَّرِ الذي لا تنضب معانيه، ولا تفنى عجائبُه. وتلك هي طبيعة النصوص الرَّفيعة التي تشتمل على دلالات كلية دُستورية؛ كنصُوص القرآن المجيد، وكثير من أقوال النبيِّ ﷺ... إنَّ هذا من عناصر الإيجاز القرآنيِّ، ومن دلائل الإعجاز البلاغيِّ فيه!))(٥١).

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م





٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

المبحث الثالث: أمثلة تحليلية لظاهرة (انتشار المعنى) في القرآن الكريم

وأمثلة ٱنتشار المعنى في القرآن المجيد عبر الإيجاز والاقتصاد في ألفاظه والتوسُّع والانتشار في معانيه كثيرة جدّاً لا طاقة لأحد في عدِّها وٱستقصائها؛ فهي ذاتُ مظاهر مُتعدِّدة، وغاية ما قام به المُختصُّون بهذا الشأن هو الدَّوران في فلكها، والاغتراف من معينها. وقد طالَعَنا ثلَّةٌ من علماء اللغة والبيان والتفسير والأُصول القدامى منهم والمُحدَثين، وفصَّلوا القول، وٱستقصوا الآراء والأقوال والاحتمالات في طائفة من الأمثلة الوافية التي رسمتْ لنا الملامح واضحةً، وحدَّدت الأطر مُبينة لتلك الظَّاهرة التي شغلتْ من كتاب ربنا الحكيم الخبير حيِّزاً كبيراً، وٱحتلَّتْ مساحةً واسعة. وفيما يأتي عيِّناتٌ من تلك الأمثلة الكثيرة والنُّصوص الوافرة:

- «الرقي أو الرقية»: قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ۝٢٧﴾ [سُورَةُ القِيَامَةِ]؛ من الرُّقية؛ وهي العوذة التي يُرقى بها صاحب الآفة. وقيل: المعنى: مَنْ يرقى بروحه ويصعد بها؟! أملائكة الرَّحمة، أم ملائكة العذاب؟![٥٢].

- «السُّكر والتَّسكير»: قال ﷻ: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾ [سُورَةُ الحِجۡرِ]؛ أي: حُبستْ عن النظر، ومُنعتْ منه، وقيل: غُطِّيتْ وسُدَّتْ، وقيل: سُحِرَتْ، وقيل: تحيَّرتْ وسكنتْ عن النَّظر! وقوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سُورَةُ الحَجِّ]؛ أي: تراهم سُكارى داهشين مُختلِّي العقول؛ لشدَّة الهول، وما هم بسكارى من الشَّراب؛ فـ«سُكارى» الأُولى: ما يعتريهم من الهول والذُّهول؛ لما يرونه من الخوف والفزع والعذاب الأليم. و«سُكارى» الثانية: السُّكر الذي يعرفونه؛ وهو ما يلحق السَّكران؛ لشدَّة الطَّرب وتزايد السُّرور؛ فهم سُكارى بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازاً، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة![٥٣].

- «حِلّ»: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [سُورَةُ البَلَدِ]. الرأيُ الأشهر في دلالة لفظة ﴿حِلُّۢ﴾ أنه الحالُّ والمقيم؛ بمعنى: وأنت حالٌّ في هذا البلد تبلِّغ دعوة



٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

ربِّك، وتلقى من أصناف الأذى ما تلقى. وإذا كان هذا هو المعنى، فلماذا لم تأت كلمة «حالّ» بدلاً من ﴿حِلٌّ﴾؟! والجواب بحسب ما نتملاه ممَّا تمليه علينا هذه الظَّاهرة الجليلة «ٱنتشار المعنى» هو ما أُريد لتلك اللَّفظة من ضمِّ معانٍ أُخرى إلى دلالتها المتبادرة للذِّهن، ثمَّ الوقوف عن تلك المعاني على مسافاتٍ مُتساوية، وإرادتها جميعاً في صيغةٍ واحدة تتَّسع لها جميعاً؛ إيجازاً وإعجازاً. إذ تأتي أيضاً بمعنى ٱسم المفعول؛ أي: بمعنى «مُستَحَلّ» على صيغة وزنٍ من أوزانه، وحينها يكون معنى الآية الكريمة: «لا أقسم بهذا البلد؛ وأنت مُستَحَلٌّ قتلُك، لا تراعى حرمتك في بلدٍ آمنٍ يأمن فيه الطَّير والوحش»(٥٤)!

وتأتي ﴿حِلٌّ﴾ بمعنى: «حلال»؛ أي إنك في حلٍّ أن تقتل مَنْ تشاء وتأسر مَنْ تشاء في هذا البلد؛ وذلك يوم الفتح؛ لأنَّ أهله قد جاءوا بما تُستحلُّ به حرمتهم؛ فرفعتْ عنهم؛ وغدوا حلاً للقتل والسَّبي والتشريد والفتك والإبادة ونحوه(٥٥)! وقيل: المعنى: ((وأنت حلٌّ بهذا البلد ممَّا يقترفه أهلُه من المآثم، مُتحرِّجٌ بريءٌ منها))(٥٦)؛ كما تقول: «أنا في حِلٍّ من هذا الأمر!»، وهو كقوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، وقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٤٨﴾﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ].

((وهذه المعاني كلُّها مُرادة مطلوبة؛ فهو حالٌّ بهذا البلد الكريم يُبلِّغ رسالة ربِّه، مُتحرِّجٌ من آثامهم، بريءٌ من أفعال الجاهلية، وقد ٱستُحلَّتْ حرمتُه، وأُريد قتلُه في حين حُلُوله به وتبليغ دعوة ربِّه. وإنَّه حِلٌّ لهذا الرَّسول أن يقتل ويأسر في هذا البلد يوم الفتح ما لا يحلُّ لغيره، وهذا على الاستقبال، وعلى الوعد بنصره! فانظرْ كيف جمعتْ كلمة ﴿حِلٌّ﴾ هذه المعاني المُتعدِّدة بخلاف ما لو قال: «حالٌّ»، أو «مُقيم»، أو «حلال»، أو ما إلى ذلك ممَّا يقصر الكلام على معنىً واحد؛ فإنها جمعت ٱسمَ الفاعل – وهو الحالُّ – وٱسمَ المفعول – وهو المُستحلُّ – والمصدر – وهو الحلال – ! فانظر أيَّ ٱتِّساع في المعنى!))(٥٧) هذا، وأيَّ ٱنتشار له، وأيَّ تراكم!

❖ «العَرْف»: قال السَّمينُ الحلبيُّ رحمه الله في المعاني والدَّلالات التي تخرج إليها لفظة ﴿عَرَّفَهَا﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]: ((أي: طيَّبها، من



العَرْف؛ وهو الطِّيب، وتقول العرب: طيَّب الله عَرْفَك؛ أي: رائحتك. وقيل: عرَّفها لهم في الدُّنيا بوَصْفٍ وصفها لهم، فإذا دخلوها؛ عرفوها بتلك الأوصاف الحسنة؛ بمعنى: ألهم كلَّ أحدٍ أن يعرف منزله في الجنَّة كما يعرف منزله في الدُّنيا مع ٱتِّساع تلك المنازل وكثرتها. وإذا ألهم الطُّيور أن تهتدي لأوكارها في الدُّنيا مع كثرة أوكارها، وأشباهها، وتقاصُر فهمها؛ فهذا أولى؛ فقيل: إنه يُبعث مع كلِّ رجلٍ مَلَكٌ يُعرِّفه منزله. وقيل: عرَّفها: زيَّنها. وقيل: شوَّقهم إليها بوصفه لها وتعريفه إيَّاها))[٥٨]، وقُرئت الآية الكريمة: ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ بتخفيف الرَّاء؛ من قولهم: «لأعرفنَّ لك ما صنعت»؛ أي: لأُجازينَّك وأُكافئنَّك عليه! ولعلَّ الضَّمير في ﴿عَرَفَهَا﴾ يعود إلى الأعمال المذكورة في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]؛ أي: جازاهم عليها هذا الجزاء[٥٩].

وهكذا؛ فالدَّلالةُ تكون مُنتشرة، قابلةً للاتِّساع كلَّما كان اللَّفظ في التَّركيب عاماً، وكانت العلَّة فيه مُختفيةً، غيرَ معروفة؛ وذلك أنَّ الارتباط الجامع بين الدَّالِّ ومدلوله كان عن طريق علَّةٍ جوهرية خفيَّة هي التي منحت لهذا الارتباط مُرونته وكثافته وٱتِّساعه، وأحدثتْ كلَّ هذا الامتداد المقصود في المجال الدَّلالي للَّفظ. ((فيجب على العلَّة أن تختفي إذاً لمصلحة المعنى. أما إذا حدث العكسُ؛ فإنها ستقلِّص المعنى))[٦٠].

على أنَّ هذا الانتشار في المعنى أو ذاك التَّوسُّع في دلالات المفردات والتراكيب القرآنية المجيدة ليس كما يتبادر إلى الذِّهن لأوَّل وهلةٍ من أنه عدم وُضُوح في المعنى، أو أنه غموض في الدَّلالة؛ بل هو على العكس من ذلك تماماً؛ لأنَّ العبارة كلَّما كانت أغزر معنىً، وأعمق دلالةً؛ كانت مكمن إيحاءٍ، ومبعث جمالٍ؛ ولا سيَّما إذا كانت هذه السَّعة في المعاني راجعةً إلى صورة كلية مؤكَّدة من جوانب شتَّى يُعضِّد بعضُها بعضاً لرسم مشهدٍ تصويريٍّ في أداءٍ فنيٍّ رائع؛ وذلك من أجل ٱستنباط أكبر قدرٍ مُمكن من المعاني الواردة في أقلِّ قدر من النصوص أو الألفاظ التي يحتملها النصُّ الكريم، والإفادة منها جميعاً[٦١].

وقد يتَّسع المجال الدَّلاليُّ الذي يوجده النظام اللُّغويُّ وينتشر ٱنتشاراً ملحوظاً من خلال تجريد الضَّمير من خاصِّيَّة تعويضه باسمٍ يعود عليه، والتمهيد لترسيخ مبدأ

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



الإحالات المُتعدِّدة المنتشرة؛ كما في قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ]؛ إذ تتعدَّد الإحالات في الضَّمير «الهاء» المتصل بـ«أنَّ» المؤكِّدة، قال الإمام البيضاويُّ رحمه الله بأنَّ الضَّمير في ﴿أَنَّهُ﴾ للقرآن الكريم، أو الرَّسول الأمين ﷺ، أو التوحيد، أو الله ﷻ[٦٢]. وبذا وجدنا أنَّ إمكانية عود الضَّمير على أربع مرجعيَّات يحتملها السِّياق التركيبيُّ الذي جاء - عن قصدٍ - مُطلقاً غيرَ مقيَّد بدلالات مُحدَّدة؛ توسُّعاً في المعنى، وبسطاً في أُفقه الدَّلاليّ مع الآفاق المرئية. فالرُّؤية مفتوحة، والآيات مُتنوِّعة وشاملة للآفاق والأنفس؛ فهي لا تحدِّد عائديةً مُعيَّنة بذاتها للضَّمير الغائب الذي أُريد له أن يشمل كلَّ المرجعيَّات المُحتملة[٦٣].

ومثله تماماً ما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ ﴿١٠﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ]؛ إذ ((يحتمل عودُ ضمير الفاعل في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ إلى ما عاد عليه ضمير ﴿إِلَيْهِ﴾؛ وهو الله ﷻ؛ فهو الذي يرفع العملَ الصَّالح ويتقبَّله ويثيب عليه. ويُحتمل عودُه إلى العمل، والمعنى: أنَّ العملَ الصَّالح هو الذي يرفعه الكلمُ الطَّيِّب. ويُحتمل عودُه إلى الكلم؛ أي إنَّ الكلم الطَّيِّب - وهو التوحيد - يرفع العملَ الصَّالح؛ لأنه لا يصحُّ العمل إلا مع الإيمان))[٦٤]؛ وبذا وجدْنا - كما في الأول - أنَّ إمكانية عود الضَّمير على ثلاث مرجعيَّات يحتملها السِّياق التركيبيُّ الذي جاء هنا - عن قصدٍ - مُطلقاً غيرَ مقيَّد بدلالات مُحدَّدة؛ توسُّعاً في المعنى، وبسطاً في أُفقه الدلاليّ وحركته الانتشارية؛ فهي لا تحدِّد عائديةً معيَّنة بذاتها للضَّمير الغائب الذي أُريد له أن يشمل كلَّ المرجعيَّات المحتملة؛ إذ مرَّ معنا وُجُوب اختفاء العلَّة لمصلحة المعنى. أما إذا حدث العكسُ؛ فإنها ستقلِّص المعنى[٦٥].

وفي قوله ﷻ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ] تستوقفنا مرجعية الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾؛ فالمرجعُ القريب الذي يُحيل إليه الضَّميرُ هو كبيرُ الأصنام الذي تركه إبراهيم عليه السلام من دون تحطيم؛ فيكون رُجُوعُهم بأن يأتوا إليه؛ ((فيسألوه كيف وقعت الواقعة وهو حاضرٌ؛ فلم يدفعْ عن صغار الآلهة؟!))[٦٦]، أو أن تكون عودتهم إليه ((كما يرجع الى العالم في حلِّ المُشكلات... وأنَّ قياس حال مَنْ يُسجَد له ويُؤهَّل للعبادة أن يُرجع إليه في حلِّ كلِّ مُشكل!))[٦٧]؛ فيكون مقصد إبراهيم عليه السلام -

٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



من الإبقاء على كبيرهم بغية رُجُوعهم إليه – سائراً في ٱتجاهين وفي خطَّين متوازيين؛ هما: الأوَّل: ما بيَّنَّاه، والثاني: رجاء عودتهم ورُجُوعهم إليه هو ﵇، وٱستفسارهم منه عمَّا ألمَّ بآلهتهم؛ لينقضَّ عليهم حينها بإقامة الحُجَّة، وبيان جهالتهم وبُطلان عبادتهم وسخافتها بصرفها لما هو عاجز حتى عن الجواب والرَّدِّ! والهدف المُتوخَّى من الرُّجوع في الحالين – كما هو واضحٌ – واحد!

وعلى العُمُوم؛ فقد كان قصدُه ﵇ أن يضعهم في مُواجهةٍ حقيقية لواقع تفكيرهم القاصر؛ فيرجعوا إلى كون هذه الأصنام عاجزةً عن النطق لتجيبهم؛ فتقوم عليهم الحُجَّة. وقد رجعوا إليه ﵇ بالفعل سائلين ومُستفسرين؛ فكانت إجابتُه مُشعرةً بالاستخفاف بعقولهم؛ تهكُّماً وتعريضاً بأنَّ ما لا ينطق ولا يُعرب عن نفسه ليس أهلاً للأُلوهية والعبادة. والقوم وإنْ كانوا قد علموا في قرارات أنفسهم أنَّ الأصنام لم يكن بمقدورها الكلام؛ إلا أنَّ إبراهيم ﵇ أراد أن يقنعهم بأنَّ حدثاً عظيماً كهذا يُوجب أن ينطقوا بتعيين مَنْ فعل بهم ذلك؛ ولكنَّ قومه المشركين أصرَّوا مُستكبرين على الإشارة إلى هذا الجُذاذ والهشيم المتبقِّي وهم ما زالوا مُصرِّين على أنها آلهةٌ أهلٌ للعبادة؛ فيجيبهم ﵇ إجابةً لاذعة تُناسبُ مُستواهم العقليَّ حين رجعوا إليه بالسُّؤال، لا إلى كبير الأصنام(٦٨)!

كما يتحقق ٱنفتاح المجال الإحاليِّ الحاصل بالضَّمائر المُنفصلة في أمثال قوله ﷻ: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣ ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]؛ إذ يمنحُنا ٱنفتاحُ المجال الدَّلاليِّ في السِّياق الانتشاريِّ العامِّ مرجعيَّاتٍ مُتعدِّدةً للضمير ﴿هُوَ﴾؛ فما أخبر عنه رسولُ الله ﷺ كثير، وما وقع ٱعتراضُهم على قبوله ممَّا أخبر به مُتعدِّد أيضاً؛ كالنبوَّة، والشَّرائع، والبعث، والقيامة، ونزول العذاب، والموعد، والقرآن الكريم... إلخ، وإنَّما جيء بضمير الغائب لإرادتها جميعاً؛ وإنْ كان السِّياق العامُّ مُشيراً ومُرجِّحاً – من بين سائر تلك الاحتمالات المُنتشرة – لوقوع العذاب ونزوله بساحتهم(٦٩).

وفي قوله ﷻ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ ٢١٣ ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ] نجدُ في قوله ﷻ: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ ضميراً مُستتراً غائباً مفرداً «هو»، وقد تعدَّدتْ إحالاتُه ومرجعيَّاتُه؛ لغياب الإسناد فيه، ووُرُوده حُرَّاً غير مقيَّد بأية قرينة. يقول الفخرُ الرَّازي: ((أما قوله ﷻ: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾؛



٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م



فاعلم أنَّ قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ فعل؛ فلا بدَّ من ٱستناده إلى شيءٍ تقدَّم ذِكْرُه، وقد تقدَّم ذِكْرُ أُمُورٍ ثلاثة؛ فأقربُها إلى هذا اللَّفظ: الكتاب، ثمَّ النَّبيُّون، ثمَّ الله ﷻ؛ فلا جَرَمَ كان إضمار كلّ واحد منها صحيحاً؛ فيكون المعنى: ليحكم الله ﷻ، أو النَّبيُّ المنزل عليه، أو الكتاب، ثمَّ إنَّ كلَّ واحدٍ من هذه الاحتمالات يختصُّ بوجه ترجيح: أما الكتاب؛ فلأنه أقربُ المذكورات، وأما الله؛ فلأنه ﷻ هو الحاكم في الحقيقة لا الكتاب، وأما النَّبيُّ؛ فلأنه هو المُظهِر))(٧٠).

ومن هنا يمكننا وصف إحالة تلك الضمائر بـ«المُنتشرة»، و«المُوسَّعة»، و«المُتراكمة»؛ لإمكانية الإحالة بها إلى جُملةٍ بأكملها، أو مجموعة مُتتالية من الجمل! ثمَّ إنها تتجاوز حُدُود البناء النظريّ لتكتنف أوسع الأشكال اللُّغوية – لفظاً مُفرداً، جُملة واحدة، جُملاً عدَّة – ، كما تعدُّ – بشتَّى أصنافها المُتعدِّدة – عملية إحالة قبلية؛ بمعنى إنها تربط جزءاً لاحقاً في النَّصِ بجزءٍ سابق؛ ومن ثمَّ تُسهم في ٱتِّساقه.

إنَّ النَّصَّ القرآنيَّ نصٌّ ثريٌّ كريم وذو مُستوىً عالٍ ورفيع؛ لذا فإنَّ ٱستجابته للمعاني ((ليست ٱستجابةً يفتعلها المُفسِّر أو يفرضها وفقاً لمعارفه ومعارف عصره؛ وإنما تعود هذه الاستجابة إلى كون النَّصِّ القرآنيّ يُوحي بتخليق المعاني في داخله وفي أعماقه))(٧١)، وقد أكَّد القرآنُ الكريم نفسُه في نُصُوصه البيّنة كثرة معاني هذا الكتاب الكريم إلى غير نفاد، وٱنتشارها إلى غير تعداد، منها قولُه ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [سُورَةُ الكَهۡفِ]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [سُورَةُ لُقۡمَانَ].

هذا، وإنَّ اللغة العالية التي ٱمتازتْ بها نصوصُ الذِّكر الحكيم تُعدُّ عاملاً آخر مهمَّاً منحها القدرة على الجود بالمعاني المُتنوِّعة، وهبة المفاهيم الجديدة؛ فهي – بلا غرو – المفتاح لدُخُول القارئ والمُفسِّر إلى عالم النَّصِّ الفسيح، وٱستنباط دلالاته، وٱستخراج أحكامه وحِكَمِهِ؛ إذ ٱختار الله ﷻ لكتابه من بين الألسنة اللِّسانَ العربيَّ؛ لأنه المُظهِرُ للمعاني والمقاصد الذِّهنية أتمَّ إظهار؛ فشرُفتْ بذلك اللغة، وعلا شأنُها، وبلغتْ من السُّمُوق شأواً لا تُدانيها فيه أية لغة أُخرى(٧٢).



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

فكثيراً ما يأتي في التفاسير تفسيرُ المُراد من الكلمة أو الجملة القرآنية وبيان معناها بعدَّة وُجُوه معنوية، ولدى التمحيص والتحليل والتأمُّل؛ يظهر لنا أنَّ هذه الوُجُوه هي من قبيل التفسيرات والتطبيقات الجزئية لدلالة الكلمة أو الجملة القرآنية ذات المعنى الكلِّيِّ العامِّ الذي يشملها جميعاً؛ فهي تصلح لأنْ تدلَّ عليها جميعاً من دُون تخصيصٍ بواحدٍ منها أو أكثر. وما جاء عن المُفسِّرين – ولو كان مأثوراً عند الصَّحابة أو التَّابعين ﷺ – إنما هو تفسيرٌ للنَّصِ القرآنيِّ ببعض ما يدلُّ عليه من جزئياتٍ أو أفراد(٧٣).

((والمنهجُ الأمثل لمُتدبِّر كلام الله ﷻ هو أن يُبقيَ اللفظة، أو الجملة القرآنية على دلالتها الكُلِّيَّة ومعناها الشَّامل؛ حتَّى تدلَّ على كلِّ الجزئيات، أو الأفراد والصُّور التي يُمكنُ أن تكون مشمولةً بها؛ ما لم يقم الدَّليلُ على التخصيص ببعض الجزئيات، أو الأفراد، أو الصُّور دون بعض(٧٤).

وعلى هذا تجمع أقوال المُفسِّرين مهما ٱختلفتْ، وتعدُّ مدلولاً عليها بالنَّصِ في شموله، ويظلُّ المعنى الكلِّيُّ للنَّصِ شاملاً كلَّ ما يُمكنُ أن ينطبق عليه من جزئياتٍ، أو صورٍ، أو أفراد، من دُون تخصيصٍ ببعضها إلا بدليلٍ مُخصِّص))(٧٥).

فإذا ما تتبَّعْنا ما نُقل لنا من أقوال السَّلف في التفسير، وجمعْنا ما هو مبثوثٌ في كُتُب التفسير بالمأثور؛ لخرجْنا من أول وهلة بكثيرٍ من الأقوال المُختلفة في المسألة الواحدة، ولوجدنا أنَّ غالبُ ما صحَّ عنهم من الخلاف في التفسير يرجع إلى ٱختلاف عبارة أو ٱختلاف تنوُّعٍ، لا إلى ٱختلاف تبايُنٍ وتضادٍّ كما ظنَّه بعضُ الناس؛ فحكاه على أنه أقوالٌ مُتباينة لا يرجع بعضُها إلى بعض(٧٦)!

خذ مثالاً على ذلك: ما جاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٤١﴾ [سُورَةُ التَّوۡبَةِ] من أقوال عديدة لأئمة التَّفسير، منها:

- ٱنفروا نشيطين، وغيرَ نشيطين.
- ٱنفروا في اليُسْر والعُسْر.
- ٱنفروا أغنياءَ أقوياءَ، وفُقراء ضُعَفاء.
- ٱنفروا مَهَازيلَ وسماناً.
- ٱنفروا خفافاً من السِّلاح، وثقالاً منه.



✍ انفروا رُكباناً ومشاة.

✍ انفروا خفافاً؛ لقلَّة عيالكم، وثقالاً؛ لكثرتهم.

✍ انفروا شُبَّاناً وشُيُوخاً.

✍ انفروا صحاحاً ومراضاً.

وما دامَ اللَّفظُ يحتملُ كلَّ هذه التَّفسيرات الجزئية بدلالته الكُلِّيَّة؛ فلا داعِيَ لتخصيص تلك الدَّلالة بواحدٍ أو عَدَدٍ منها. والأوْلى حملُهُ على كلِّ ما ينطبقُ عليه معنى الثقل ومعنى الخفَّة من الأُمُور التي ينشط معها المُؤمنُ للخُرُوج إلى الجهاد في سبيل الله ﷻ، والأُمُور المُثبِّطة عنه. من دُون تخصيصٍ ببعض الجزئيات التي ينطبق عليها معنى الثقل الكُلِّيِّ، ومعنى الخفَّة الكُلِّيِّ(٧٧).

وزد عليه ما جاء في سُورة النَّجْم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾، يقولُ ابنُ حبنكة: ((نظرتُ في كُتُب اللُّغة؛ فوجدتُ أنَّ كلمة «سامدون» تأتي دالَّةً على عدَّة معانٍ، هي:

✍ لاهُون، لاعبُون. فـ«سامد»: لاهٍ، لاعبٌ. في اللُّغة.

✍ ساهون، غافلون. فـ«سامد»: سَاهٍ، غافلٌ. في اللُّغة.

✍ مشغولون بالغناء. فـ«سامد»: مشغول بالغناء. في اللُّغة.

✍ متكبِّرون، بطرون، أشرون. فـ«سامد»: مُتكبِّر، بطِرٌ، أشِرٌ. في اللُّغة.

✍ قائمُون، جامدُون، لا تتأثرون. فـ«سامد»: قائمٌ، جامد، لا يتأثر. في اللُّغة.

✍ أغبياء. فـ«سامد»: غبيٌّ. في اللُّغة.

✍ مُتحيِّرون. فـ«سامد»: مُتحيِّر. في اللُّغة.

وإذا نظرنا إلى واقع حال المُخاطبين بآيات القُرآن الحكيم من أهل الكُفر والشِّرك؛ وجدْنا فيه كلَّ تلك الأصناف. فمنهم من يصرفه عن الاستماع لكتاب الله ﷻ وتفهُّم دلالاته أنه لاهٍ لاعبٌ. ومنهم من يصرفه أنه ساهٍ. ومنهم من هو مشغولٌ بالغناء. ومنهم مَنْ يصرفه كِبْرُه وبَطَرُه وأشَرُه. ومنهم من هو قائمٌ، جامدٌ، لا يتأثَّر بهداية القُرآن، ولا بترغيباته وترهيباته. ومنهم غبيٌّ، ومنهم مُتحيِّر!

وليس بعضُ تلك المعاني أوْلَى بالاعتبار من بعض؛ ما دام المخاطبون يُوجد فيهم أصنافٌ، وكلُّ صنفٍ ينطبق عليه معنىً منها؛ لذا كان لزاماً علينا – فيما يترجَّحُ بالدَّليل



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م





من جواز ٱستعمال اللَّفظ الواحد في معنييه فأكثر - أن نفهم أنَّ كلمة «سامدون » في هذا النَّصِ القُرآنيِّ الحكيم تدلُّ على كُلِّ المعاني آنفة الذِّكْر.. والله ﷻ أعلم))(٧٨).

وجاء في بيان لفظ «السُّفهاء» من قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ١٤٢﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ] عدَّة أقوال، أهمُّها: أنهم مُشركو العرب، أو أحبارُ اليهود، أو المنافقون(٧٩)، وقال ٱبنُ كثير رحمه الله: ((... والآية عامَّة في هؤلاء كلِّهم، والله أعلم))(٨٠)، وعقَّب الميدانيُّ رحمه الله بالقول: ((وما قاله ٱبنُ كثير أعمُّ وأشملُ؛ إذ لا مُوجِبَ للتخصيص. ومن المعلوم المُجرَّب أنَّ الكافرين على ٱختلاف أصنافهم متى أطلق بعضهم شُبهةً على الإسلام؛ ردَّدها سائرُهُم، وتناقلها بعضُهم عن بعض؛ فيكونون جميعاً قائلين لها ولو لم يكونوا كلُّهم مُبتكرين لها. وهذه المقالةُ الواردة في الآية قد يكون اليهودُ أوَّلَ من أطلق فكرتها، ثمَّ ردَّدها المنافقون نقلاً عنهم، ثمَّ ردَّدها المشركون! فالجميع قائلون لها))(٨١).

وجاء في تفسير كلمة «هلوع» من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [سُورَةُ المَعَارِجِ]، دلالتها على المعاني الآتية: شحيح، ضجور، حريص، بخيل منوع للخير، جزوع إذا نزل البلاء بساحته(٨٢)؛ فعلى المُتدبِّر الحصيف لكلام الله ﷻ ((أن يجمع المعاني الجزئية الصحيحة التي تنسجم مع دلالة النَّصِّ بسوابقه ولواحقه، وبدلالة نصوصٍ أُخرى مُوزَّعة في القرآن تُتمِّم معنى النَّصِ الموضوع للتدبُّر، ويُؤلِّف منها معنىً جامعاً كلِّيَّاً، ويفهم النَّصَّ الذي يتدبَّره بمقتضى ذلك))(٨٣).

وفي هذا السِّياق يقول ٱبن عاشور رحمه الله: ((وإنك لتمُرُّ بالآية الواحدة؛ فتتأمَّلها وتتدبَّرها؛ فتنهال عليك معانٍ كثيرةٌ يسمح بها التركيبُ على ٱختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربيِّ، وقد تتكاثر عليك؛ فلا تكُ من كثرتها في حصرٍ، ولا تجعل الحمل على بعضها مُنافياً للحمل على البعض الآخر إن كان التركيبُ سمحاً بذلك. فمُختلف المحامل التي تسمح بها كلماتُ القرآن وتراكيبُه وإعرابُه ودلالته... إذا لم تُفْضِ إلى خلاف المقصود من السِّياق؛ يجبُ حملُ الكلام على جميعها... وعلى هذا القانون يكونُ طريق الجمع بين المعاني التي يذكُرُها المُفسِّرون، أو ترجيح بعضها على بعض. وقد كان المُفسِّرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل؛ فلذلك كان الذي يُرجِّح معنىً من

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن يجعل غيرَ ذلك المعنى مُلغىً. ونحن لا نُتابعهم على ذلك؛ بلْ نرى المعاني المُتعدِّدة – التي يحتملها اللَّفظ بدون خُرُوجٍ عن مَهْيَع[٨٤] الكلام العربيِّ البليغ – معاني في تفسير الآية))[٨٥].

على أننا نبقى – أولاً وآخراً – من القرآن الكريم إزاء أشياء فوق اللغة وما تعارف من قواعدها وآدابها؛ إذ إنَّ في الكتاب العزيز أساليبَ وتراكيبَ لا يُمكنُ أن يفيَ غيرُها بمعناها.



٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م





٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

الخاتمة

وفي ختام تلك الرحلة البحثية في رحاب كتاب ربنا الحكيم الخبير، لا يسعني إلا أن أسطر بعض ما توصلتُ إليه من نتائج:

- (الحركة الانتشارية للمعنى في القرآن الكريم) تعني جمعَ القرآن المجيد للمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة؛ وذلك أنه صيغ في أسمى درجات البلاغة والإيجاز! أو هي تطويعُ الكلمات اللغوية المحدودة والمعدودة – على كثرتها – وتأهيلها للقيام بعدد من الوظائف والمعاني المُختلفة؛ فجاء أُسلوب القرآن ضمن قوالب لفظية يسيرة وموجزة تنطوي تحتها مكنوناتٌ معنوية واسعة، وأرجاءٌ دلالية هائلة، ومقاصد تربوية وتشريعية مترامية يتعذر الإحاطة بها عبر محدود الزمان والمكان!
- إنَّ التوسُّع بالحركة الانتشارية في معاني الكلمات والنُّصُوص لا يشين اللغة، ولا يُنهكها، ولا يُثقل كاهلها، ولا يدلُّ بحالٍ على ضعفها أو ضيقها وقلة ألفاظها؛ بلْ يدلُّ على طواعيتها ومُرُونتها وشجاعتها! وما قيل عن اللغة؛ يقال – وأكثر – عن كتابها الأكبر: القرآن المجيد الذي بلغ الذِّروة في إيجاز عبارته وإعجاز إشارته.
- الأصلُ في الألفاظ والتراكيب أن تكون مُختلفة بحسب ٱختلاف المعاني التي يُراد لها تأديتُها؛ ولكنَّ ذلك لم يكنْ في الإمكان؛ إذ المعاني بلا نهاية، والألفاظ ذاتُ نهاية، وغير المُتناهي لا يحويه المُتناهي؛ فلم يكنْ من بُدٍّ من وقوع ٱشتراكٍ وٱقتصادٍ في الألفاظ بإزاء وقوع ٱمتدادٍ وٱنتشارٍ في المعاني؛ ليسدَّ الأخيرُ النقصَ المحتوم في الأول!
- الأسبقية للمعاني في الوُجُود النفسي، والألفاظ تابعة وخادمة لها في الواقع الكلامي، وهذا يُفسِّر مبدأ حقيقة لانهائية المعاني مقابل نهائية الألفاظ.
- إنَّ وُجُود كلمة مستقلة خاصَّة بكلِّ شيء نتداوله في واقعنا اللغوي أمرٌ في غاية الصُّعُوبة والعُسْر؛ لأنه يفرض عبئاً ثقيلاً على الجهد الذاكري! ونحن مهما أُوتينا من ملكة البيان؛ فبيانُنا لا يفي بما في نفوسنا من الأفكار والتَّصوُّرات، وملكاتنا لا تسعف ما نرومُ الإفصاحَ عنه من الأغراض والمقاصد.



❁ تأتي الألفاظ في السياق القرآنيّ محفورة، منحوتة، مملوءة دلالة وإشارة وإيماءً وإيحاءً؛ فليس للمتأمل فيها الحقُّ بأن يقف عند حُدُود الأبعاد المادِّية لهذه الألفاظ؛ فالقرآن المجيد حين ٱستعملها لم يكنْ ليقفَ عند تلك الدلالات المحدودة؛ فجاء حريصاً قاصداً إلى الانتشار حتى بلوغ الإشباع الدلاليّ لهذه الألفاظ من الصوت والمعنى الأساس، إلى الإشارة والرمز، فالمعنى العاطفيِّ والإيحائي.

❁ إنَّ من دلائل الإعجاز في عبارة القرآن: تميُّزه عن غيره من الكلام البليغ بكثرة الاحتمالات، وليس كذلك كلام البشر؛ فإنه كلَّما كان أبلغ؛ كان أدلَّ على المطلوب، وأبعد عن الاحتمالات.

❁ من أسخى منابع العطاء في القرآن المجيد ولغته الثرَّة وأجودها: ٱجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة في اللَّفظ الواحد وفي كلام واحد. فإذا ورد أكثر من معنىً لغويٍّ صحيح تحتملها الآية بلا تضادٍّ؛ وجب تفسير الآية بها جميعاً.

❁ إنَّ الكلمات، أو الجمل القرآنية قد تكون ذوات أكثر من دلالة، وإنَّ بعض هذه النصوص صالحة لأنْ توحي بأكثر من معنىً، وإنه لا داعي لصرف النصِّ عن أحدها وقصره على واحدٍ منها دون غيره؛ لما في ذلك من تحكُّمٍ يأباه العقل، وتأباه اللغة، وتأباه الأساليب البيانية الرَّفيعة.

❁ الدَّلالةُ تكون مُنتشرة، قابلةً للاتِّساع كلَّما كان اللَّفظ في التَّركيب عاماً، وكانت العلَّة فيه مُختفيةً، غيرَ معروفة؛ وذلك أنَّ الارتباط الجامع بين الدَّالِّ ومدلوله كان عن طريق علَّةٍ جوهرية خفيَّة هي التي منحت لهذا الارتباط مُرُونته وكثافته وٱتِّساعه، وأحدثتْ كلَّ هذا الامتداد والانتشار المقصود في المجال الدَّلالي للَّفظ؛ فيجب على العلَّة أن تختفي إذاً لمصلحة المعنى. أما إذا حدث العكسُ؛ فإنها ستقلِّص المعنى.

❁ يستثمر القرآنُ الكريم دائماً برفق أقلَّ ما يُمكنُ من اللَّفظ في توليد أكثر ما يُمكنُ من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه كلِّه؛ يستوي فيها مواضع إجماله التي يُسمِّيها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يُسمُّونها مقام الإطناب.

❁ إنَّ النَّصَّ القرآنيَّ نصٌّ ثريٌّ كريم وذو مُستوىً عالٍ ورفيع؛ لذا فإنَّ ٱستجابته للمعاني ليست ٱستجابةً يفتعلها المُفسِّر أو يفرضها وفقاً لمعارفه ومعارف عصره؛ وإنما تعود

هذه الاستجابة إلى كون النَّصِّ القرآنيِّ يُوحي بتخليق المعاني في داخله وفي أعماقه.

- إنَّ اللغة العالية التي ٱمتازتْ بها نصوصُ الذِّكر الحكيم تُعدُّ عاملاً مهمَّاً منحها القدرة على الجود بالمعاني المُتنوِّعة، وهبة المفاهيم الجديدة؛ فهي المفتاح لدُخُول القارئ والمُفسِّر إلى عالم النَّصِّ الفسيح، وٱستنباط دلالاته، وٱستخراج أحكامه وحِكَمِهِ؛ إذ ٱختار الله ﷻ لكتابه من بين الألسنة اللِّسانَ العربيَّ؛ لأنه المُظهِرُ للمعاني والمقاصد الذِّهنية أتمَّ إظهار.



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



هوامش البحث

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية/ ص٣٦، ويُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١/ ٩).

(٢) وهذا ما سنصطلح على تسميته بـ(أحادية المعنى).

(٣) مجلة المورد – المجلد (٥)، العدد (٢)، ص٤٣.

(٤) ينظر: الألفاظ المشتركة المعاني في اللغة العربية/ ص٢٨.

(٥) ينظر: دور الكلمة في اللغة/ ص١١٦– ١١٧.

(٦) اللسانيات واللغة العربية/ ص٢٠٦، وينظر: ص٣٧٤، وعلم الدَّلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٢٠٤– ٢٠٥، و٢١٤، و٢٤١.

(٧) ينظر: البيان والتبيين (١/٥٥)، ومقدمة التفسير/ ص٨٠– ٨١.

(٨) ينظر: المزهر في علوم اللغة (١/ ٣٦)، ودلائل الإعجاز/ الصفحات: ١٥– ٢١، و٥٨، و٢٨١، وعلم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي/ الصفحات: ١٦١، و١٧٣، و٢٠٤– ٢٠٥، و٢١٤، و٢٧٣.

(٩) ينظر: دلائل الإعجاز/ ص١٥– ٢١، والبحث الدلالي في نظم الدُّرر/ ص١٣٣.

(١٠) مباحث في علم التفسير، للدباغ/٦٠.

(١١) يُنظر: النبأ العظيم/ ص١٦٢– ١٦٤.

(١٢) ينظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٧٨٦– ١٧٨٧)، والإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم/ ص٤٦٧– ٤٦٨.

(١٣) ينظر: الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم (المقدمة)، ص١.

(١٤) ينظر: في ظلال القُرآن (١٤٨/٤).

(١٥) يُنظر: قواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٥٧، وبحوث في أُصول التفسير ومناهجه، للرُّومي/ ص١١٠.

(١٦) في ظلال القُرآن (٦/ ١١٩).

(١٧) المصدر نفسه (٤٨/٧).

(١٨) المصدر السابق (١٣٧/٥).

(١٩) يقال: «طريق مَهْيَع»؛ على زنة «مَفْعَل»؛ أي: واضح، واسع، بيِّن، صواب؛ من التَّهيُّع؛ وهو الانبساط [ينظر: العين (٢/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٦/ ٢٥)، ولسان العرب (٨/ ٣٧٨)، وتاج العروس من جواهر القاموس (٢٢/ ٢٢٢)].

(٢٠) يُنظر: بُحُوث في أصول التفسير ومناهجه، للرُّومي/ ص١١١– ١١٢.

(٢١) النَّبأ العظيم (١/ ١٥١).

(٢٢) ينظر: النكت والعيون (٥/ ٤٥٠).



٢٧شوال
١٤٤٠هـ

٣٠ حزيران
٢٠١٩م







(٢٣) يُنظر: الصِّحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ١٦٥)، والنكت والعيون (٥/ ٤١٠)، وأساس البلاغة (١/ ٤٤٠)، ولسان العرب (٥/ ١٦٥- ١٦٩)، وعُمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٤/ ٨٣).

(٢٤) التَّفكير واللُّغة/ ص٦٢، ويُنظر: دراسات في النَّحو، للزعبلاوي/ ص٦٥١.

(٢٥) ينظر: النكت والعيون (١/ ٢٨٥).

(٢٦) ينظر: المصدر نفسه (٦/ ٢٢٦).

(٢٧) النَّبأ العظيم/ ص١٦٢- ١٦٤.

(٢٨) المرجع نفسه/ ص١١٨- ١٢٣.

(٢٩) يُنظر: المرجع السابق/ ص١٦٩- ١٧٠.

(٣٠) معاني النحو (١/ ٩)، ويُنظر: الدِّراسات اللُّغوية في تفسير اللُّباب/ ص١٣٥.

(٣١) يُنظر: مُغني اللَّبيب (١/ ٨٠٥).

(٣٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٤/ ١٦٠).

(٣٣) يُنظر: أيسر التفاسير (٥/ ٥١٩).

(٣٤) يُنظر: البحر المُحيط (٦/ ١٢٠)، وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ١٦٨).

(٣٥) يُنظر: مباحث في علوم القرآن، للصالح/ ص١٠٩، وقواعد التَّدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٥١٧.

(٣٦) يُنظر: الكشَّاف عن حقائق التنزيل (٤/ ٥٤٥)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٣٤٢)، والبحر المُحيط (٨/ ٢٧٠)، واللُّباب في علوم الكتاب (١٩/ ١١٦).

(٣٧) عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ١٧٠- ١٧١).

(٣٨) وهي قراءة نافع وٱبن كثير وأبي عَمْرٍو وٱبن عامر وخَلَف [يُنظر: الإتحاف/ ص١٧٣، والنَّشْر (٢/ ٢٣٩)، والسَّبعة/ ص٢٠٤، وعمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ٤١٣)].

(٣٩) عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ٤١٣).

(٤٠) ينظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر/ ص٣٣٤، والنَّشْر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٦)، وعمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ١٦٣).

(٤١) ينظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، للرُّومي: من أسباب ٱختلاف المُفسِّرين: الاختلاف في وُجُوه القراءة/ ص٤٦.

(٤٢) دور الكلمة في اللغة/ ص١١٤- ١١٥، وينظر: الألفاظ المعبرة عن الكلام في التعبير القرآني/ ص٥.

(٤٣) اللغة، لفندريس/ ص٢٥٤.

(٤٤) ينظر: علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص١١٧، و٢٤١، وعلم الدلالة، لعمر/ ص٦٩.

٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م





٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م

(٤٥) ينظر: اللغة العربية – معناها ومبناها/ ص٣٣٧، و٣٥١- ٣٥٢، والنحو والدلالة/ ص١١٤- ١١٥، والمعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الدرس اللغوي الحديث/ ص١٢٩- ١٣٢، وأسباب التعدُّد في التحليل النحوي/ ص٣٢- ٣٦.

(٤٦) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم/ ص٤٦٩.

(٤٧) ينظر: التفسير اللغوي/ ص٤٩١.

(٤٨) ينظر: المرجع نفسه/ ص٥٩١.

(٤٩) ينظر: المرجع السابق/ ص٢٠٤.

(٥٠) ينظر: مقدمة التفسير/ ص٨٠- ٨١، ودلائل الإعجاز/ ص١٥- ٢١.

(٥١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٥٦٧- ٥٧٠.

(٥٢) ينظر: تهذيب اللغة (٣/ ٢٦٩)، والصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٢٦٦)، والمفردات في غريب القرآن (١/ ٢٠١- ٢٠٢)، ولسان العرب (١٤/ ٣٣١)، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل/ ص٢٠٥.

(٥٣) ينظر: تهذيب اللغة (٣/ ٣٢٦)، والصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٢٣)، ومقاييس اللغة (٣/ ٨٩)، وأساس البلاغة (١/ ٢٢٢)، ولسان العرب (٤/ ٣٧٢)، وعُمدة الحُفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٢/ ٢٠٧).

(٥٤) جاء في «الكشاف»: ((ومن المكابدة أنَّ مثلك على عظم حرمتك يُستحلُّ بهذا البلد الحرام كما يُستحلُّ الصيد في غير الحرم... يُحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلُّون إخراجَك وقتلك!)) [(٤/ ٧٥٧)، وينظر: مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨٠)، والبحر المحيط (٨/ ٤٧٤)، وروح المعاني (٣٠/ ١٣٣)].

(٥٥) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل/ ص٢٢٤- ٢٢٨.

(٥٦) روح المعاني (٣٠/ ١٣٤)، وينظر: مفاتيح الغيب (٣١/ ١٨١).

(٥٧) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل/ ص٢٢٧- ٢٢٨.

(٥٨) عُمدة الحُفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٣/ ٥٩)، وينظر أيضاً: (٤/ ٢١٩).

(٥٩) وهي قراءة آبن محيصن [ينظر: القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب/ ص٨٢].

(٦٠) علم الدلالة، لجيرو/ ص٥٠، وينظر: علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٧٩- ٨٠، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١١٢.

(٦١) ينظر: علم الدلالة – أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٢٩١، والتفسير اللغوي/ ص٦٧٧.

(٦٢) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ١٢٠).

(٦٣) ينظر: التفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١٦٠- ١٦١.

(٦٤) مباحث في علوم القرآن، للصالح/ ص٣٠٩، وينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١١)، والإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤٩).



(٦٥) ينظر: علم الدلالة، لجيرو/ ص٥٠، وعلم الدلالة - أصوله ومباحثه في التراث العربي/ ص٧٩-٨٠، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١١٢.

(٦٦) في ظلال القرآن (٥/ ١٦١).

(٦٧) الكشاف عن حقائق التنزيل (٣/ ١٢٤).

(٦٨) ينظر: المثل السائر (٣/ ٧٢)، والبحر المحيط (٦/ ٣٢٠)، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١٦٣- ١٦٥.

(٦٩) ينظر: مفاتيح الغيب (١٧/ ١١١)، والبحر المحيط (٥/ ١٦٨)، والتفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١٦٩- ١٧٠.

(٧٠) المصدر نفسه (٦/ ١٤)، وينظر: التفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية/ ص١٧١.

(٧١) الفكر الديني في مُواجهة العصر/ ص٥٤، وينظر: مداخل جديدة للتفسير/ ص١٢٢.

(٧٢) ينظر: مداخل جديدة للتفسير/ ص١١- ١٢.

(٧٣) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٥٩، والتفسير والمفسرون (٣/ ١٤- ١٦)، والمعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات/ ص٢- ٣، و٢٧- ٢٩، الاختلاف في التفسير- حقيقته وأسبابه/ ص١٥- ١٨.

(٧٤) كقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ٢٢٨﴾ [سورة البقرة] في دلالة لفظ «القرء» على الحيض والطُّهْر، وكقوله ﷻ: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ١٢٧﴾ [سورة النساء] في دلالة فعل الرغبة على المحبة والكراهية كليهما، وكقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾ [سورة التكوير] في دلالة لفظ «عسعس» على معنى الإقبال والإدبار... إلخ.

(٧٥) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٦٠.

(٧٦) ينظر: التفسير والمفسرون (٣/ ١٤- ١٦)، والتفسير اللغوي/ ص٥٩١- ٦٠٥، والمعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات/ ص٢- ٣، و٢٧- ٢٩، الاختلاف في التفسير- حقيقته وأسبابه/ ص١٥- ١٨.

(٧٧) ينظر: قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٦٠- ٦١.

(٧٨) المرجع نفسه/ ص٥٧٩.

(٧٩) ينظر: النكت والعيون (١/ ١٩٧).

(٨٠) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٥٢).

(٨١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٦١.

(٨٢) ينظر: جامع البيان (٢٣/ ٦١٠- ٦١١)، والنكت والعيون (٦/ ٩٤).

(٨٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ/ ص٦٣.

(٨٤) سبق بيان معناه في الهامش (١٩)؛ فليُراجع هناك.



(٨٥) التحرير والتنوير (المقدمة التاسعة – في أنَّ المعاني التي تتحملها جُمل القرآن، تعتبر مُرادة بها)، (١/ ٩٧).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: شهاب الدِّين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدِّمْياطي (ت١١١٧هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢- الإتقان في علوم القرآن: أبو الفضل جلال الدِّين بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الإيمان (الإسكندرية)، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣- أثر الدرس اللغوي في فهم النص الشرعي: أ. د. محمد المختار محمد المهدي/ موقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).

٤- الاختلاف في التفسير – حقيقته وأسبابه: د. وسيم فتح الله/ موقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).

٥- أساس البلاغة: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار صادر (بيروت)، ط١، ١٣٨٥هـ.

٦- الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم: علي بن نايف الشحود/ موقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).

٧- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري/ مكتبة العلوم والحكم (المدينة المُنوَّرة)، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨- البحر المحيط: أبو عبد الله أثير الدِّين محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، مراجعة: صدقي محمد جميل/ دار الفكر (بيروت)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٩- بحوث في أصول التفسير ومناهجه: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي/ مكتبة التَّوبة (بلا مكان، ولا تاريخ نشر).



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م





١٠- البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدِّين الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تقديم وتعليق: مصطفى عبد القادر عطا/ دار الفكر (بيروت)، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١١- البيان والتبيين: أبو عثمان عَمْرو بن بحر الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون/ مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط٧، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٢- تاج العروس من جواهر القاموس: أبو الفيض مرتضى الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، دار الفكر (بيروت)، (ب. ت).

١٣- تفسير القرآن العظيم، الشهير بـ«تفسير ابن كثير»: أبو الفداء عماد الدِّين إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدِّين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٤- التفسير والمُفسِّرون: أ. د. محمد حسين الذهبي (ت١٣٩٧هـ)، دار القلم (بيروت)، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٥- التفكير واللغة: العالم النفسي الروسي ل. س. فيجوتسكي (ت١٩٣٤م)، تقديم: لوريا ليونييق برونو، تعقيب: جان بياجيه، ترجمة: د. طلعة منصور المعرفة/ مكتبة الإنجلومصرية (القاهرة)، ط١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

١٦- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: الأستاذ محمد عبد المُنعم خفاجي، والأستاذ محمد فرح العُقْدة/ مراجعة: الأستاذ محمد علي البيجاوي، (بلا معلومات نشر).

١٧- جامع البيان في تأويل آي القرآن، الشهير بـ«تفسير الطبري»: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار سويد (بيروت)، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م.

١٨- دراسات في النحو: صلاح الدِّين الزعبلاوي/ موقع اتحاد كُتَّاب العرب، وموقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).

١٩- دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت٤٧٤هـ)، تحقيق: د. محمد التنجي/ دار الكتاب العربي (بيروت)، ط١، ١٩٩٥م.



٢٧شوال ١٤٤٠هـ

٣٠ حزيران ٢٠١٩م





٢٧شوال
١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران
٢٠١٩م

٢٠- الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم «أطروحة دكتوراه»: محمد جعفر محيسن العارضي، إشراف: أ. م. د. حاكم مالك لعيبي الزَّيَّادي/ جامعة القادسية - كلِّيَّة الآداب (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الشهير بـ«تفسير الآلوسي»: أبو الثناء عبد الله شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الآلوسي، البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي (بيروت)، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٢- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الرازي (ت٣٩٥هـ)، تعليق وحواشي: أحمد حسن بسج/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٣- الصِّحَاح «تاج اللغة وصِحَاح العربية»: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطَّار/ دار العلم للملايين (بيروت)، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢٤- علم الدلالة - أصوله ومباحثه في التراث العربي: د. منقور عبد الجليل/ موقع اتحاد الكُتَّاب العرب على شبكة الإنترنت، مكتبة الأسد (دمشق)، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٥- عُمْدة الحُفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ (معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم): أبو العباس شهاب الدِّين أحمد بن يوسف بن عبد الله الدائم، السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٦- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ)، تحقيق: أ. د. مهدي المخزومي، أ. د. إبراهيم السامرائي/ دار الرشيد (بغداد)، ١٩٨٠-١٩٨٢م.

٢٧- الفكر الديني في مواجهة العصر - دراسة تحليلية لاتجاهات التفسير في العصر الحديث: عفت محمد الشرقاوي/ مكتبة الشباب (القاهرة)، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.



٢٨- في ظلال القرآن: الإمام الشهيد سيد قطب بن إبراهيم حسين الشاربي (ت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م)، دار الشروق (بيروت)، (القاهرة)، ط٣٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٩- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: الشيخ عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي/ دار الكتاب العربي (بيروت)، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٠- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: تأمُّلات الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، دار القلم (دمشق)، والدار الشامية (بيروت)، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣١- الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الشهير بـ«تفسير الزمَخشري»: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المعتزلي (ت٥٣٨هـ)، دار المعرفة (بيروت)، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٣٢- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدِّين بن عادل الحنبلي (ت٨٨٠هـ)، تحقيق وتعليق: د. علي محمد معوَّض، وآخرين/ دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٣- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدِّين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري، الإفريقي، المصري (ت٧١١هـ)، دار الفكر (بيروت)، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٤- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: أ. د. فاضل صالح السامرائي/ دار الشؤون الثقافية (بغداد)، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٥- مباحث في علم التفسير: أ. د. عبد الستار حامد الدَّبَّاغ/ دار الحكمة (الموصل)، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٦- مباحث في علوم القرآن: أ. د. صبحي الصالح (ت١٤٠٧هـ)، دار العلم للملايين (بيروت)، ط١٨، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٧- المعنى القرآني في ضوء آختلاف القراءات: أ. د. أحمد سعد الخطيب (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر)، شبكة التفسير والدراسات القرآنية، (ب. ت).





٣٨ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: أبو محمد جمال الدِّين عبد الله بن محمد بن يوسف بن هشام الأنصاري (٧٦١هـ)، تحقيق: أ. د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله/ دار الفكر (بيروت)، ط٦، ١٩٨٥م.

٣٩ – مفاتيح الغيب، الشهير بـ«تفسير الفخر الرازي»، أو«التفسير الكبير»: أبو عبد الله فخر الدِّين الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٠ – مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الرازي (ت٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون/ دار الفكر (بيروت)، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤١ – النبأ العظيم «نظرات جديدة في القرآن الكريم»: د. محمد بن عبد الله درَّاز (ت١٣٧٧هـ)، عناية: أحمد مصطفى فضلية/ تقديم: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني/ دار القلم (الكويت)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٢ – النشر في القراءات العشر: أبو الخير شمس الدِّين محمد بن محمد بن الجَزَري (ت٨٣٣هـ)، إشراف وتصحيح ومراجعة: الشيخ علي محمد الضَّبَّاع/ المكتب المصري الحديث، مَجْمَع البحوث الإسلامية في الأزهر (القاهرة)، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤٣ – النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: خضر محمد خضر/ مطابع مقهوي (الكويت)، ط١، ١٩٨١م.

الرسائل والأطاريح

٤٤ – الألفاظ المُعبِّرة عن الكلام في التعبير القرآني «رسالة ماجستير»: نبراس حسين مهاوش العزاوي، إشراف: د. حسن منديل العكيلي/ جامعة بغداد – كلِّيَّة التربية للبنات (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٥ – البحث الدلالي في «نظم الدُّرر»، «أطروحة دكتوراه»: عزيز سليم علي القريشي، إشراف: أ. م. د. لطيفة عبد الرسول عبد/ الجامعة المستنصرية – كلِّيَّة التربية (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.



٢٧شوال ١٤٤٠هـ
٣٠ حزيران ٢٠١٩م



٤٦- التفسير البياني للتراكيب القرآنية ذوات الدلالات الاحتمالية «أطروحة دكتوراه»: نوَّار محمد إسماعيل الحيالي، إشراف: أ. م. د. عماد عبد يحيى الحيالي/ جامعة الموصل – كلِّيَّة الآداب (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٧- التفسير اللغوي للقرآن الكريم «أصله أطروحة دكتوراه»: د. مساعد بن سليمان بن ناصر الطَّيَّار/ دار ابن الجوزي (الدَّمَّام)، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤٨- الدراسات اللغوية في تفسير «اللُّباب في علوم الكتاب»، «أطروحة دكتوراه»: إسماعيل عباس حسين الكعبي، إشراف: أ. د. عبد الله أحمد الجبوري/ الجامعة المستنصرية – كلِّيَّة الآداب (قسم اللغة العربية)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

البحوث والدوريات

٤٩- أسباب التعدُّد في التحليل النحوي: د. محمود حسن الجاسم (جامعة حلب/ كلِّيَّة الآداب – قسم اللغة العربية)، موقع المكتبة الشاملة على شبكة الإنترنت، (ب. ت).

٥٠- الألفاظ المشتركة المعاني في اللغة العربية – طبيعتها، أهميتها، مصادرها: د. أحمد محمد المعتوق/ مجلَّة جامعة أم القرى/ العدد (٢١)، المُجلَّد (١٣)، رمضان ١٤٢١هـ/ كانون الأول ٢٠٠٠م.

٥١- المعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الدرس اللغوي الحديث: د. فارس محمد عيسى/ مجلَّة البلقاء للبحوث والدراسات (جامعة عمَّان الأهلية)، العدد الثاني – المُجلَّد الأول، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.



٢٧شوال ١٤٤٠هـ

٣٠ حزيران ٢٠١٩م





٢٧شوال ١٤٤٠هـ

٣٠ حزيران ٢٠١٩م

Abstract

The study examined in depth the most important aspects of the Quranic meanings, which varied in its indications and senses, by shedding some of the bright lights on the so-called phenomenon of the diffusion of meanings in the Holy Quran, which means: The Glorious Quran has the ability of containing polysemy in a few words, And by subjecting the lingual words to do a number of functions and of different significances, and to show what that phenomenon's impact of effective and tangible in the guidance of some of verses, and enrich the others from various moral ways, while preserving their verbal forms; consequently the scientific miraculousness of the Holy Quran and the verbal briefing in its finest forms have utmostly appeared. The research divided into three sub-chapters, the first dealt with the need for this phenomenon. While in the second, the papers exposed the fluctuating significance of the meanings of the Holy Quran between the diffusing movement and the direct significance. The third was held to review a range of analytical examples of the phenomenon of "diffusion of meanings" in the Holy Quran. Then conclusion of the research by the most important findings, and the most important references, which I have benefited to enriching the practical material for the research.

